W A L I D   S H O R A F A

روايات

القائمة القصيرة لجائزة
البوكر العربية ٢٠١٨

وليد الشرفا

وارث الشواهد

مكتبة | 163

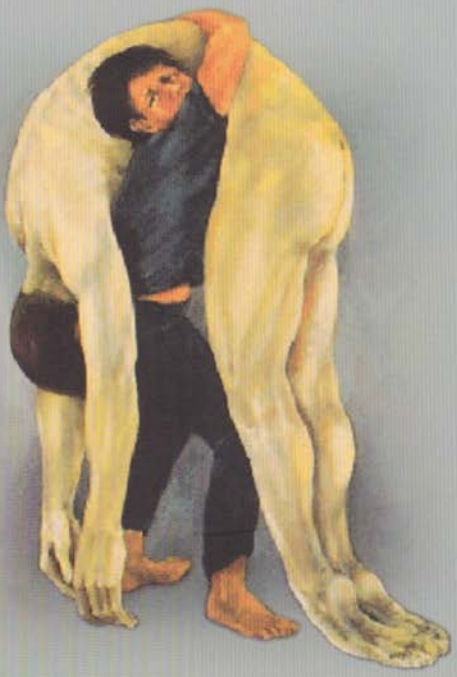

الأهلية

وارث الشواهد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الأهليّة للنشر والتوزيع

e-mail: alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)

المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد، بناية 12

هاتف 4638688 6 00962 ، فاكس 4657445 6 00962

ص.ب: 7855 ، عمّان 11118 ، الأردنّ

الفرع الثاني (المكتبة)

عمّان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بناية 34

◆

وارث الشواهد / رواية عربيّة

وليد الشرفا / فلسطين

◆

الطبعة الأولى، 2017

حقوق الطبع محفوظة

◆

تصميم الغلاف: زهير أبو شايب، عمّان، هاتف 95297109 7 00962

لوحة الغلاف: "الإرث"، للفنانة تمام الاكحل / فلسطين

◆

الصفّ الضوئيّ: إيمان زكريّا خطّاب، عمّان، هاتف 95349156 7 00962

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية: (2017/6/2882)

الترقيم الدولي: ISBN 978-9957-39-187-4

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

رواية

وليد الشرفا

وارث الشواهد

للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

الأهلية

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الإهداء

إلى الشاعر أحمد دحبور: صدقناك، حيفا ليست مدينة إنها الجنة، لكنها وقعت منا وسمعنا مثلك بحرها ينثرها على يدينا، سامحنا عن كل هذا الأذى.

إلى الأسير كريم يونس: خمسة وثلاثون عاما من تعريف طويل لفلسطين، ربما كانت هذه الرواية وهج عينيك، نعتذر عن النسيان.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

القارئ شريك في المعجزة،
لكنه ليس شريكا في الإثم!!!

سأل نبي الله سليمان، أو ملك الله سليمان -وهذا من لعنة الروايات التي ستصيب القارئ، فلا يفلت منها- عفريتا من الجن عن الكلام، فأجاب: تبدّده الريح فلا يبقى، فقال: ما قيده؟ قال: الكتابة.

تتحقق المعجزة بمجرد القراءة، من على جبل الكرمل، وهو جبل المعجزات منذ الإله بعل، وهو كذلك عاصم المظلومين والمكلومين. سيتمكن القارئ من تحقيق المعجزة، حيث ستقيد الريح خيالات فلسطيني، وعذاباته وجروحه وكسوره. وهو يدعى «الوحيد» لقبا، وصالح تسمية، ويقبع الآن في سجن الدامون، ليس بعيدا عن بلدته الأصلية عين حوض، التي أصبحت في رواية أخرى (عين هود) بعد احتلالها عام 1948 على يد اليهود المهاجرين من أصقاع الأرض، والمواطنين الفلسطينيين -سابقا- بعد أن استجابوا لدعوة الرب بعد ثلاثة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

آلاف عام بقتل جيرانهم. وهذه رواية ستدخل الوحيد في التيه والعتب. ربما على الروايات المنسوبة للرب جلّها.

الوحيد هذا مؤرخ فلسطيني، أو مشتغل بالتاريخ، جدّه هُجّر من عين حوض، تربى على روايات الجمال والبحر والكرمل والعصافير والوديان، تربى على أن البحر في عين حوض يكون أرضية البيت وعتبته، والريح سقفه، ولا طعم لأي شيء خارج عين حوض. ترك جده البيت على فراخ الحمام، تركه مهجرا، لكنه ظل يعود إليه تذكرا، حتى بنى منزلا في نابلس نسخة عنه، وهكذا فعل ما تبقى من المهجرين الصامدين داخل النبي، الذي أصبح أرض(إسرائيل)، فأنشؤوا مقابلها عين حوض جديدة، مقابل الفنانين الذين ورثوا منزل جدّ الوحيد، ليصنعوا فنا!

سيدخل القارئ عقل الوحيد، وسيتتبع أحلامه ورواياته، حتى يصبح أقرب إليه من حبل الوريد، ويدخل كنهه، وهذه إحدى معجزاته، فكيف لا؟! وإن كانت عين حوض نفسها معجزة في نشأتها، فقد روي أن أبا الهيجاء وهو أحد قادة صلاح الدين الأيوبي، في معركة حطين سنة 1187 حين جاء محرّرًا لفلسطين أو غازيا كما يقول الوحيد: ظل لحظة تشنج للروايات المسيحية والإسلامية.

أبلى أبو الهيجاء بلاء منقطع النظير، فأراد صلاح الدين تكريمه، فأمر برمي طبل، فطار الطبل، من حطين بين طبريا

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

والناصرة، وحط على صخرة، حتى حفر بها ظله، وأقسم أناس أنهم رأوا الطبل مجسدا على الصخر، فقال صلاح الدين: هذه الأرض لك ولنسلك من بعدك. وليس غريبا أنه حتى لحظة تقييد هذه المعجزة، ما زال آل أبي الهيجاء هم من يسكنها.

ورواية المعجزة قد تؤدي إلى حالة إعجاز، فالوحيد فلسطيني دفع ثمن روايات الأرباب، وبها خلق معجزته، وربما يكون نبيا معجزا، يذكر نعمة الله عليه، فالأرض التي يكتب منها وفيها وعنها، «فلسطين»، أرض المعجزات؛ ففيها رزق إبراهيم بإسماعيل، أو إسحق في رواية أخرى. ولعنة الروايات سترافق القارئ طيلة إنتاجه للمعجزة بعد أن فقد الأمل بالولد، وفيها نجا يوسف من كيد إخوته، وفيها قام المسيح الرب، أو النبي في رواية أخرى، بعد أن صلب وقتل، وقيل في رواية أنه لم يصلب أبدا، وقبل أن تقطر قطرة دمه الأخيرة، حدثت المعجزة عندما أخبر اليهود بخطبة الإفصاح عن أنه المسيح، حدثت معجزة الرب بقفزه عن جبل القفزة في الناصرة، ليكمل دربه وليقول كلمته، قفز من بين مخالبهم ولهاثهم في اجتماع اغتياله. وأقسم من رأى الصخر أن آثار جرّه وبصمات جسده ماثلة، وصدى دقات قلبه يسمع من كلّ زائر مؤمن بالرب.

ويروى أن النبي محمدا أيضا، عرج بمعجزته الكبرى إلى السماء من القدس، ليس بعيدا عن طريق الآلام، وهي الرحلة الأكبر في معجزته ودينه، حيث التقى الأنبياء وصلى بهم في

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ظلال الله! وما زالت الصخرة المفتوحة نحتا تتجه نحو السماء، وتعيد مجد الرب إلى المسجد كل ليلة.

ولأن الذاكرة والخيال تشتتهما الريح، كما قال الجن للنبي أو للملك سليمان، فإن القارئ الذي يقرأ هذا الكتاب شريك بالمعجزة والكرامات، لكنه ليس شريكا في الإثم، ولا يتحمل وزر زور الروايات أو زيغها. لكنه لا بد أن يتحمل ما يحمله مخيال الوحيد وعقله من آلام. منذ اللحظة الأولى لمقتل والده على مشارف نابلس عام 1967، عندما احتل النبي (الدولة) (إسرائيل) بقية فلسطين، وعمره كان بضع سنوات، فلم يستطع الصبيّ نسيان صورة جثة والده في القبر، فظلت تحفر عقله. لقد دفن مرتين، وفي قبرين! فجزع لذلك جزعا شديدا.

وكذلك، فإن الريح هنا توصي القارئ بالصبر على أدق التفاصيل التي سيوردها الوحيد عن المنزل في عين حوض، وللجد الذي عاد إلى عين حوض، ودار حول منزله ميتا بمساعدة طبيب فلسطيني مسيحي نصراني أصيب بالشك والإثم من الرواية كلها!

ولا يفوت رسول الريح هنا أن يشير إلى أن القارئ لا يتحمل أي إثم من أحلام الوحيد، ولا نزوات الطبيب النصراني، إلى حين، ولا حتى لغو ريبكا، زوجة الوحيد غير الموحدة، وابنته الرسامة الصغيرة ليلى. وهكذا فإن كل قارئ

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يقرأ عقد الجن هذا، ستكون قراءته بمثابة إعادة الروح للوحيد ولروايته الوحيدة الحاضرة الآن، التي رغم إعجازها ترى بالعين المجردة وتسمع. ولأن الأمانة واجبة أن ترد إلى أهلها، فإن ميثاق الكتابة هنا يدعو القارئ بألا يفزع ولا يصدق الافتراء أن الوحيد غدا قاتلا أو دمويا أو حتى ناكرًا للجميل، فهذه إمارات لا تجتمع في نبيّ صديق، عدا عن بعض روايات بني إسرائيل في كتابهم وأسفارهم وجنّهم. وإذ يوصي المقيد القارئ الآن، الواثق بروايته، بأن لا يجزع ولا يقنط ويكون من الصابرين على الآلام التي ابتلي بها سليمان الصالح، حتى لا يحيد، ويضيع دينه من بعد ثبات! ويعود كالعرجون القديم، فقد تم كل شيء، وما تقاسونه من صبر فهو عند الرب لا يضيع.

ولأن كشف الغيب أبسط درجات المعجزة والنعم، سيقوم الطبيب بعمل كان يحقره ويصغره، ولا يؤمن به أبدا، وهو الكتابة، التي لا يتبعها إلا المفتونون والمرضى وأتباع الشهوات. سيأخذ الطبيب ميثاق الروايات الظاهرة من سيرة الوحيد وصبره معه، وكيف هداهما الرب إلى فلسطينيتهما خارج فلسطين؟ وكيف حاد عن سؤال المحبة إلى سؤال العدالة من خلال سفره مع الوحيد ومعايشته لأخباره؟ ذلك أنه عندما رأى شاهد منزله في عين حوض منقوعا بالبول والبراز وما يتأه السكارى تحت أقدام المتغوّطين، بعد أن نقله الفنانون الجدد من

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أعلى باب المنزل إلى أسفل أرض الحمام، فرأى برهان نفسه، واتخذ الحجر ذراعا.

وسيقوم الطبيب بدور الترجمان لجن اللسان، وسيحاول أن يجري عملية تحويل اللغة التي كتبت بها زوجة الوحيد عن تفسيراتها لنبوّته، وهي غير الموحدة، إلى اللسان العربي المبين، وهو لسان الفلسطينيين قبل الروايات جلها، وسيقرأ لبني إسرائيل وغيرهم من الناس في يوم النشر الأكبر مدى حزنها وصدقها ورفضها لأن يكون الوحيد قاتلا جبارا، وتعلن أنها من المهتدين إلى رسالته، وأنها تعلن ميلاد دين خاتم، هو دين الوحيد، وتعلن أن فكرة الإنسانية عندها كانت كذبا.

وربما، وهذا ليس مؤكدًا، ربما يقوم الطبيب بترجمة مغايرة، لرسالة ليلى ابنة الوحيد، التي رسمت منزليها، دون أن تراهما، الأول، منزل الجد في عين حوض، والثاني منزل الجد والأب في نابلس.

وفي ختام هذه الفاتحة بين العجيب والأرضي، فإن كل قراءة باسم الوحيد، ستعيد إحياءه، وإحياء آلامه وذكرياته في وجه شر من خلق. وربما -والله بكل شيء عليم- تساهم في تحقيق رؤياه وما سيقوله في المحكمة التي تسبق الخاتمة في هذه الحادثة الغريبة، بأنه يعلم الغيب وما أخفى، ولا يقتله الرصاص، وعليه تكون النار سلاما وبردا، ولا يمكن لدمه أن ينفد، مثل ماء البحر ونسيم الريح.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

باسم الرب والروح

أزمنة هذه الروايات عميقة، عمق الروايات نفسها، وأمكنتها ضاربة ممتدة تعبر عليها هذه الروايات، وهذه المعجزة، مثل: حيفا وعكا ونابلس وبيروت والقدس والصحراء وبلاد الغرب الجديدة والمخيمات، فعلى القارئ أن يطمئن لسلامة روحه، لأن شراكته في الإعجاز، لا تعني شراكته الآثام الواردة فيه.

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ما لم يتم تدوينه!

اقتربت نهاية الحكاية مني، الحكاية التي سمعتها طوال أكثر من أربعين عاماً تقترب من رقبتي، لتنهي الترنح والتنقل بين الحكايات، ولم يبق أحد ممن شهد الحكاية الأولى إلا هذه المرأة الوحيدة، أمي، لكنها ستنهي الحكاية كما بدأناها سويا، أنا وهي وجدي. إنه الفصل الأخير: قبل نحو خمسين عاما كنت أنا ابن الرابعة بين أم وجد، أنا الذي كنت أمرح وألهو وأنتظر خبرا عن عودة والدي إلى المنزل. غابت شمس ذلك اليوم، أوصل جدي أمي إلى بيتنا، وذهب هو إلى المنزل الكبير، نمت أنا وقتها بين يدي أمي، وبقيت هي تنظر إلى النافذة وتمسح على شعري، وجهها كان أحمر، أحمر جدا، و عيناها مبتلتين.

في الصباح، أقف بينهما ثانية تنظر، تنتظر، تعود. قال أحد الرواة ممن جاء من المدينة: إن الجنود اليهود بينما كانوا ينصبون الحواجز قتلوا شخصا عند المعسكر.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أحد هؤلاء الجنود يحرسني الآن، وأنا في طريقي إلى السجن أو الموت، والهواء الساخن مع العرق الملتصق بجسدي، يقرّبني أكثر من الحكايات التي سمعتها، وصنعتها فيما بعد. في صبيحة اليوم التالي صحوت مفزوعا من فراشي تحت شباك منزلنا المطل على الوادي في أمّ البساتين، صرخت أمي صوتا جرح حلقها، وهرولت نحو الوادي، لحق بها جدي، حاول الإمساك بها، وقعت على الأرض ثم قامت، وهكذا حتى وصلها في آخر الوادي. وضع عباءته عليها، وأدخلها المنزل. عينا جدي أراهما الآن سوداوين، حادتين، شاخصتين دون أية حركة. أسنانه تطحن نفسها، وأنا أبكي في تلك اللحظة خوفا عليهما، وخوفا من خوف أمي، وخوفا من شكل جدي الذي لم أكن ألفته من قبل.

قال أحد سكان القرية: قبل يومين أوقف الجنود الذين احتلوا مدينة نابلس شخصا عائدا من المدرسة، أوقفوه وقتلوه. روى أحد المارة من قرية مجاورة، أن الجنود أوقفوا الرجل أمام المدرّعة الحديدية، وطالبوه برفع يديه عاليا، بعد أن أخذوا كتبه، وعندما رفع يديه صوّب أحدهم من بعيد رصاصتين إلى صدره، فسقط على الأرض، وبدأ ينزف. انتظر الجنود حتى العصر، وطلبوا من اثنين من الموقوفين أن يحفرا قبرا إلى جانب الشارع الرئيس المؤدي إلى المدينة؛ بين مدخل المدينة ومدخل معسكر الجيش، يبعد القبر تماماً نحو ثلاثة أمتار. طلب الجنود

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

منهما أن يدفناه قبل أن يتم اقتيادهما ثانية إلى المعسكر، في اليوم التالي من أيام الحرب الستة.

سمعت منذ تلك اللحظات الرواية عن موت والدي، وشعرت بعدها بأن أمي وجدي كانا من الأشرار؛ لأنهما نقلا الحكاية. كنت متأكدا من ذلك الشعور، لأتيقن أن هذا هو الشهيد المجهول -الاسم الذي أُطلق على قبره- بعد نهاية اليوم السادس من الحرب، و بداية تحرك الناس نحو المدينة.

سيكون هذا القبر المجهول، وهذا الشهيد المجهول هو أبي، وسيعرف جدي بعد أسبوع من انتظار الأخبار والحكايات، أن هذا الشخص هو المدرس الذي كان عائدا من مدرسته، وأنه كان يرتدي قميصا أبيض وبنطالا أزرق، وبيده كتابان للصف السادس لمادة التاريخ، طويل القامة، نحيف في العشرينات من العمر. وسيقول الناس في القرية المجاورة إن هذا المدرس هو ابن سليمان الصالح المُهجّر من حيفا، من قرية عين حوض، والذي جاء إلى أم البساتين، وبنى بيتا يشبه بيته في عين حوض. وسأصبح أنا منذ تلك اللحظة الابن الوحيد للشهيد المجهول.

عندما أعاد جدي والدتي إلى البيت وقال لها: لعله خير، لعله خير.

- أجابت وهي تترنح: لكنه لم يعد منذ يومين. قلت له لا تخرج، الأوضاع خطيرة، لم يستجب وخرج، وحتى الآن لم يعد.

اقتربت أمي. سحبتني بلهفة. قلت لها حينها: وين أبوي؟ قالت، وقد ذهبت لتحضر ماء لتغسل وجهي: بيرجع. بيرجع إن شاء الله.

لم يعد أبي منذ تلك اللحظة، هكذا ستقول لي العجوز أمي بعد نحو خمسين عاما: «مترحش يمة، اللي مات مات، وخليك جنبي تدفني». قلت لها: «يا حجة، كلها يوم أو يومين وسأعود». أمسكت بي وقالت: «اللي مات مات، وسيدك الله يرحمه».

أكثر من أربعين عاما وأنا أعيش بين ذكرى القبرين، وحكايات البيتين. ستكون ليلى وحيدة الآن، في بيتي الذي يفصلني عنه بحر ومحيط، تنام على سريرها الأبيض، تعتقد أنها تنتظر والدها الذي ذهب ليطمئن على صحة جدّتها التي لم ترها. ستبقى ليلى وحيدة، وربما تسمع خبر إعدام والدها القاتل. ولن أعود إلى ربيكا، المرأة الوحيدة التي ألحت عليّ بالحب، والمرأة الوحيدة التي لمستها في حياتي، ستقرأ هذه الأسرة عن خبر خيانتي وإعدامي، ربما.

في العيد الأول من سنة النكسة، سيحملني جدي، ويحمل أمي إلى الشارع الرئيس، الواصل بين أمّ البساتين والمدخل الشرقي لنابلس، وهناك سننزل إلى جانب الشارع، وستقع أمي، وسأهرب أنا خوفا، وسأرى عيني جدي مرة أخرى، وهو يلف رأسه بكوفيته، وسأقرأ الفاتحة على روح

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

والدي «الشهيد المجهول»، وسأرى من نوافذ السيارات نظرات الاستغراب والدهشة والشفقة.

أذكرها الآن: تقدمت أمي نحو شاهد القبر، مسحت التراب برفق، قرأ جدّي الفاتحة، وعدنا إلى المنزل. انزوت والدتي تبكي. أخذني جدي. ركبت خلفه على الحصان. كان متعرّقاً تماماً. قال لي: «أمسك يا سيدي، أمسك».

خاف جدي أن أقع عن الحصان. مشى بنا الحصان إلى الحقل البعيد الذي بدأ زراعته بالزيتون. حضنت جدي وأنا أجلس خلفه. مشى الحصان وأنا التصق به أكثر. لامس خدي ظهره. نمت وأنا أشم رائحة عرقه. توقف الحصان. صحوت. حملني جدي. أجلسني تحت شجرة الزيتون الكبيرة وانزوى. تأخر. كان يدير ظهره نحو الغرب. يجلس القرفصاء على حافة بستان مرتفع. مشيت نحوه. اقتربت. وقفت خلفه تماماً. سمعت نحيبه. كان ينظر إلى الغرب. حضنني بقوة. ما زالت رائحة عرقه عالقة بأنفي. قال لي: «الله يرحم أبوك». عرفت أنني لن أرى والدي.

بعد أكثر من أربعين عاما سأندم لأنني بقيت نائما ذلك اليوم، ولم أصحُ لأودعه، وستبقى بعض الهمهمات واللمسات وكلمته «حبيبي» فقط هي ما يذكرني بأبي الذي كبرت وأنا أسمع من جدي ليلة ميلاده في عين حوض في حيفا، وكيف كان جدي وظهره وحصانه وعرقه، وحكايات عن عين

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

حوض، وعن تفاصيل الأدراج والجدران الحجرية ومقبرة البلدة وجبل الكرمل وشارع الاستقلال. وكل ذلك الذي تربيت عليه؛ فأنا لم أعش بين قبرين فقط، بل عشت بين بلدتين، وبيتين، وربما «ربين» كما هو الآن!

عندما أكبر قليلا، سأتخيل جثمان والدي تحت التراب، وسأعلم أني أصبحت وبقيت ابن الشهيد المجهول، رغم أنه أصبح معروفا، وسأظل أزور قبرين عندما يقرر جدي بعد نحو عامين أن ينقل جثمان والدي إلى قبر جديد بجانب منزلنا في أمّ البساتين، وسأرى والدتي تحتضنني بقوة، وأنا أبكي والدي الذي لن أمسك بيده ثانية، وتقول: «أبوك الآن أصبح بيننا».

تدريجيا أكبر، سأعيش على حكايات جدي سليمان: يصحو مبكرا. أركب خلفه على الحصان وأمشي نحو تل البساتين الممتدّ بشكل عرضي كأنه درج عظيم من البساتين، يزرعها جدي بالزيتون والعنب، ويظل ينظر إلى بيتنا دائما. سيحدثني عن شجر الخروب الذي زرعه ليتذكر دوما رائحة عين حوض في الصباح.

عندما يعد لنا الفطور، سيقول: كنت في مثل هذه اللحظة مقابل البحر عند وادي «بستان» الذي تتدفق منه المياه نحو البحر، سيسرح وسينظر نحو الغرب، سيصف ندى الصباح، وذلك الضباب الخفيف الذي يجعل أشواك البرّ طرية. سيقول: ولد أبوك قبل احتلال عين حوض، كنت

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أضعه تحت شجرة الخروب التي انهار فيما بعد جدارها الحجري فأصبحت جذورها مكشوفة بشكل طولي. تقع هذه الشجرة عند الزاوية الجنوبية لبيتنا الذي يتوسط البلد نحو البحر. زرع والدي هذه الشجرة مع بداية بناء البيت الحجري. سيصف البيت، وقد جلس ينظر غربا: يلف البيت سور حجري قطعه جدك الكبير من الصخر حجرا حجرا، وبابه على شكل قوس، تدخل منه إلى ساحة حجرية، تسير بعدها إلى الدار الكبيرة وبيت المونة، وغرفة الزوار. إلى جانب البيت من ناحية الغرب جهة البحر يرتفع درج حجري نحو سطح البيت الذي يظهر ضباب البحر ولونه الأزرق من بين غابة خضراء متشابكة، وستشم رائحته أكثر.

سيستمر في وصف البيت وشجرة الخروب، وشجرات السرو الأربع التي زرعها جدي صالح عام 1935، بموازاة الدرج الحجري. هنا سيتوقف جدّي عند الدرج الذي شرب الشاي الصباحي جالسا على درجته الثانية: عندما كبرت وأصبح عمري نحو اثني عشر عاما، أذكر أنني شهدت يوم ذبَح جدّك صالح ثلاثة رؤوس من الماعز، ودعا أهالي عين حوض إلى وليمة في المسجد الوحيد الذي يتوسط القرية، وكيف تحولت ساحته الخارجية إلى ساحة دعاء للجد وللبيت. سأنقل أنا أواني الطبخ والطعام واللحم، وسأنهك وأنا أحمل إبريق الماء للناس لكي يغسلوا أيديهم.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

سوف أسمع تلك الحكايات كأني محايد. سأكبر وسيكبر جدي، وسأذهب إلى المدرسة، وستغطي الأشجار تل البساتين، وسيكبر شجر الخروب، وسيظل جدي يعيد الرواية في طريق العودة إلى البيت على إحدى تلال نابلس المنبسطة على جبل جرزيم، البيت المرتفع المطلّ نحو الغرب، الذي صممه جدي بالطريقة نفسها التي صمم بها منزل عين حوض، مع زيادة في الغرف، وسيعيد على مسامعي المشهد قبل نحو خمسة وعشرين عاما، وأنا في مدرستي، كان والدك الله يرحمه، يركب خلفي.

كنت، وأنا أستمع، أركب خلف جدي، وأطوق خصره بيدي وخدي يلتصق بمعطفه المتعرق، وأشمّ الرائحة نفسها؛ رائحة عرقه مع التراب مع رائحة الحصان، وسيهتز رأسي الاهتزازات نفسها مع انحناءات الطريق، وسيكبر شجر العنب والسرو والخروب، وستكبر الحكاية، وسأكبر أنا، سيقول جدي بعد أن يرتفع صوته:

- «اسمع يا سيدي، ما تتوقع أن الطريق نفسها، في عين حوض تحسّ بأن الأرض تكلمك، كنت أحس بأن الخروبة (أم الشروش) -كما أصبح اسمها عند أهالي البلد- تضحك لي، وتنتظرني عندما أقترب. كنت أحس بالدرجات الحجرية -التي كانت سبع درجات، في كلّ درجة ستة أحجار غطاها العشب وقد اسودّ لونها- تنتظرني لأشرب الشاي، وآكل أقراص الزعتر التي تخبزها جدتك. كنت أنظر نحو الغرب، فأرى

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

البحر يعكس أشعة الشمس وضباب المساء بين الحشائش والأشجار التي كانت تغطي حمرة التربة...».

سيعيد الحكاية للمرة المليون: «في عين حوض لا ترى التراب من كثافة الأشجار، ونبت العليق والتفاح البري خاصة وقت المطر، والرائحة عند وادي بستان ووادي فلاح اللذين يمران إلينا من الدالية، رائحة لا يمكن وصفها عندما يعجن النهر الماء والزهر والتراب، وستغرق أشعة الشمس في البحر، وستعود من الجهة الشرقية، كما كان سيدك صالح يحدثني».

عندما يقترب من المنزل سيربط الحصان، ويقول: «عندما تنظر إلى الشرق في عين حوض، يكون خلفك جبل الكرمل المقوّس الحادب على الأرض والبحر، وعن شمالك سترى بيوت حيفا على شكل نقاط بيضاء، وشوارعها كأنها عروق سوداء، وستكون أمواج البحر خطوطا رقيقة متقلبة.

في الليل سيعدّ جدي العشاء، وستأتي أمي لتغسل يدي ورجلي. أعرف أنها كانت عند قبر والدي، ستحضنني وستطعمني الجبنة البيضاء مع زيت الزيتون برفقة جدي، الذي سيقول: «ما تطعميه، لقد كبر». ستقول والدتي: «لو يوم عرسه سيظل طفلي».

سيتحدث جدي عن العشاء في عين حوض، وعن صوت العصافير وأزهار الكرمل، وحديقة المنزل الخلفية التي ترك فيها نحو عشرين شجرة من الصنوبر والخروب والبلوط وقبورًا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لثلاثة من أجداده، هم: جدي صالح، وجده محمود، وجده عبد الرحيم. سيصف القبور، وسيحدّد لون حجارتها، ونوعية التربة التي دفنوا فيها والشواهد. وسيعود مرة أخرى إلى الحديث عن العشاء على درج عين حوض، ومرة أخرى سيحاول نشر رائحة البحر في أنفي، وطيور الحجل والعصافير الملونة، وتلك الهوّة السماوية بين جذر الكرمل ورمل البحر، ومشواره الصباحي من المنزل إلى وادي فلاح.

عندما أدخل البيت، سأسمع الحكاية الأخرى من أمي، ستقول وهي تحضّر لي الفراش: «لقد عاد ولدك يا أستاذ»، وهي الكلمة التي كان يلقب بها والدي في أم البساتين، قبل أن يصبح الشهيد المجهول. ستكرر وتخاطب الصورة: «لقد عاد ولدك»، وتعدّ الأيام، سيكون معنا دوما، إضافة إلى صورته المعلقة على الجدار بالأبيض والأسود.

عندما يهبط الليل ستنتشر الغيلان، وسأتذكر قبر والدي، وسيكون المشهد الأخير الذي ستبثه ذاكرتي ملايين المرات، وإلى الأبد، وفود طلاب المدارس في مدينة نابلس، وأكاليل الزهور، وأطلال بعض الكلمات المكتوبة والمثبتة على أكاليل الزهور ببعض الأسلاك البلاستيكية «ينعون، بمزيد من الحزن الأستاذ الشهيد». أسماء مدارس وقرى كثيرة، وسيظل جدي يعدلها بعد أن بليت الزهور ويبست الأوراق الخضراء، ولم يبق سوى الأسلاك والبلاستيك، سيظل يعدلها، وستبقى على القبر حتى

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

تتلاشى. وسيتذكر جدي قبر والده في عين حوض، وماذا جرى له والعصافير وبعض أزواج الحمام التي صنع لها برجا قرب شجرة الخروب «أم الشروش»، وجاروشة القمح بجانب السور إلى اليمين من مدخل الحوش.

سأكبر بين الحكايات والروايات. سأكره الروايات والأحاديث. سأصل إلى المرحلة الثانوية. سأعاني من الروايات والانتظار. سأتعارك مع الطلاب الذين سيطلقون على لقبين، هما: الغريب، وابن الشهيد المجهول. سيتحرشون بي عند النتائج المدرسية. سأقع أرضا، سيهاجموني، سأسمع كلمة الغريب، واليتيم، والوحداني. سيدعوني المدير -وكان لطيفا من أحد مخيمات نابلس- سيقول: «عيب يا أولاد عيب، اللي فينا مكفينا». وسيستمع إلى روايات الأولاد الخمسة، سيقولون: دائما يسخر منا، ويتكبر علينا، سيقول الأول: «كنا نسير فبدأ بالسخرية منا». سيقول الثاني: «قال عنا أغبياء». سيقول الثالث: «هو الذي بدأ بالضرب». سيتابع الرابع: «أهان والدي». وسيختم الخامس: «منذ أشهر ونحن نتحمل تصرفاته لأنه وحيد ويتيم». سأرفض المجادلة والرد، وسيخبرني المدير بشهادات الطلاب ضدي، لكنه لن يعاقبني: «يا بني دير بالك على حالك، ورحم الله والدك».

سأكره الروايات في كتب المطالعة والنصوص، في قصة أكلت يوم أكل الثور الأبيض، وسأصاب بالقهر والانكسار من

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

رواية غزوتي بدر وأحد، ولن أشعر بالانبهار من بطولة خالد بن الوليد عندما التفّ حول جبل أحد، وسأتعاطف مع النبي يوسف والنبي نوح، وسأبكي وأنا في المرحلة الابتدائية على الكلب الذي قتلته صاحبة المنزل عندما ظنت أنه افترس رضيعها، لتدخل البيت وتجد أنه قتل الأفعى وأنقذ حياة ابنها، كل ذلك كان بفعل آثار الدم. سأبكي قهرا وحسرة وسيؤلمني حلقي. هكذا كرهت الحكايات؛ فقد كنت دائما ضحية لها أمام المدير، وأمام شهادات الطلاب ضدي، وأنا لسان واحد. وأنا الوحيد واليتيم والغريب، وابن الشهيد المجهول.

وسيزيد الأمر بؤسا أنني الوحيد الذي تأتي أمه لملاقاته في وسط الطريق، أمه لا أبوه. كان لديّ استثناءان: أن أمي هي التي تأتي لملاقاتي في وسط الطريق، وأن والدي لم يكن هو الحاضر في كلّ مناسبة تقيمها المدرسة وتطلب حضور أولياء الأمور.

سأتبع جدي بعد الدوام المدرسي. سيهرع لملاقاتي وسط البساتين. سيفرح سيفرح كثيرا لأني كبرت وبدأت أحمل له الماء والزاد وكيس التبن للحصان. سيحمله عني، ونتغدى سويا. هذا الشيخ لم يمل، سيحدثني عن طعم البندورة والتوت والخروب والتفاح البري في عين حوض، وستسرح عيناه مع كل لقمة يأكلها. سيذكر لي اليوم الأخير له في عين حوض هو ووالدي الطفل. سيعيدها يوميا دون أن يخطئ أو يزل بكلمة.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وكل يوم سيشم رائحة الخبز ويتحسر على طعمه ورائحة الدخان مع رائحة السرو والصنوبر وإكليل الجبل.

سيحمل جدي زاد الحصان، وسيروي اليوم الأخير في عين حوض قبل أن يهجم المستوطنون، مستوطنو «عتليت» القريبة، الذين كانوا جيرانا قبل ذلك اليوم. سيصف الدخان وصوت الرصاص: «هاجمونا في الليل، ذبحوا المواشي عند حدود البلدة، وبدؤوا بالاقتراب، هدموا المنزل فوق رأس الداية سعدية الأرملة الوحيدة. سيحملونها من بين الأنقاض، سيصف الناس الهاربون جثتها الرقيقة، وكيف تقوست على الجدار الحجري أمام منزلها، كان الدم قد غطى رأسها، وكانت أصابع يدها قد دكت واختلطت على شكل لحم ممزق. تحدبت على الجدار من ناحية ظهرها. **سأفسره الآن هنا في هذه الزنزانة المظلمة بأنه صلب أرضي، كان رأسها قد تهدل نحو منزلها المدمر، فيما ارتفع بطنها وتدلت رجلاها نحو الطريق.**

في نيسان بالضبط، سيعدّها جدي باليوم، وسيعد الأشجار المحروقة منذ نيسان حتى تموز من عام 1948، سيصف المستوطنين ومدافعهم وخوذهم الحديدية، وليالي المبيت والاختباء في كهوف الكرمل التي تحولت من مكان للعب واللهو في الطفولة إلى ملجأ من قصف المستوطنين بالمدافع. سيجتر الحسرة على الأشجار المحروقة، وعلى شابين استشهدا عند المسجد، وجرى تعليقهما على بوابته، وسيبكي عندما احتل

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

اليأس قلبه وخوفه على والدي. سيتأنى وتشخص عيناه ويغرقهما الدمع عندما يستعيد نظرته الأخيرة وإغلاقه المنزل بعد أن حشر الحمام في غرفة الزوار، سيضع الجاروشة تحت الفراش، وسيحمل والدي على ظهره وحيدا بعد أن أرسل جدتي إلى نابلس عند صديقه الذي كان يعمل في تجارة الحبوب.

سأنظر كلما صحوت -كأنني كومة من العظام- من زاوية زنزانتي الرطبة في سجن الدامون المقام على أراضي القرية الجارة دالية الكرمل. سترنّ في أذني تفاصيل زيارات جدي للدالية، التي تفصلني عنها جدران كانت أعدت لتحزين الدخان منذ أيام الانتداب البريطاني، وسأخزنهما بين الصحو والغيبوبة، وبين العجز والقدرة على الصحو؛ بعد أن تحولت إلى قاتل بشع، لأجترّ الرواية الأخيرة التي لن تكتب.

كانت المحطة الأولى للحكاية المرحلة الثانوية، كنت قد بلغت من الشأن في المدرسة ما منحني القدرة على أن أسبق عمري؛ كنت مبدعا في الرياضيات، وأحفظ الشعر عن ظهر قلب، وأجادل الأستاذ في العلوم. طرح مرة سؤالا حول العمليات الحيوية التي يقوم بها الكائن الحي، فكانت: الولادة والنمو والعمليات الحيوية، وأخيرا الموت. رفعت يدي معترضا على الموت والولادة، لأنهما عمليتان لا يقوم بهما الكائن الحي، وإنما يقع ضحيتهما قسرا. رفض الأستاذ تدخلي، وقال: «اكتب الموجود في الكتاب. المعوض كريم، الله عوض على أمه

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

قد ما صبرت». سأسمع كل ذلك وسأمشي وحيدا، وستبدأ الأحلام تتلبسني، وسأعود مرة أخرى إلى والدي الذي بدأت أحس معنى فقدانه بعد أكثر من عشر سنوات. سأتذكر قبره الأول بالرهبة والوجع نفسه الذي سأحس به عندما أقف فوق رأسه في حديقة منزلنا، لكن بشعورين مختلفين: سأبقى أرهب القبر الأول؛ لأن فيه الموت البكر، وسأشعر بوحشة أقل عند قبره الثاني؛ لأن فيه الاستقرار والخروج من تيه تذوق الموت. وسأحلم حتى الآن بذلك الكيس الأبيض الذي لف به جثمان والدي للمرة الثانية بعد نقله من القبر، وسأرى حذاءه الذي انكشف عنه الكفن، وسيسقط كتابا التاريخ، وسيدفنان معه مرة أخرى، وسيقام العزاء. هذه المرة سأكون إلى جانب جدي.

عندما يهبط الليل في أيام الشتاء، أتسلل إلى حظيرة الماعز المحاذية لبيت جدي، وسأدخل رويدا، سأسمع صوت المطر الغزير، سأجلس على أرضية الحظيرة على التبن، سأستمتع بالدفء، وأقترب أكثر من صغار الماعز، سأتحسسها وأضعها في حضني، وعين الماعز الأم تحدق بي، وسأستمع إلى أسنانها تجتر الحَبّ. ستحدق بي أكثر كلما مررت يدي على رأس السخل الصغير، وتقف عن الاجترار، لكنها سرعان ما ستعاود طحن الحبوب. سأحس هناك بدفء العائلة، نعم كان ذلك عندما كنت أصعد إلى جبل جرزيم، أنظر نحو البحر إلى حيفا وعين حوض في الأفق، وأعود وحيدا في الليل البارد، كنت أتمنى أن أصبح قطا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بريا؛ لأحس أكثر بدفء الطبيعة والكهوف، وهي حالة شعورية ستنتابني عندما أرى أسراب النمل تدخل بيتها تحمل الحب. كنت أتمنى أن أكون نملة لأنعم بالسكينة والهدوء شتاء.

سأصاب أكثر بالرعب عندما أفتح الباب فتقفز والدتي من فراشها، كأنها تراني للمرة الأولى، ستتحسسني وتنام.

أجتاز الامتحان النهائي في المدرسة. سأحرز معدلا فائقا. ستتحدث المدينة كلها عن ابن الشهيد المجهول والوحيد اليتيم وتفوقه المبهر في جامعة النجاح. في نهاية تلك السنة ستندلع الانتفاضة الأولى، وستكون نابلس ساحتها الساخنة. سيكثر الدم، وسيموت الأطفال في الشوارع بين الإطارات المشتعلة والحجارة. ستدخل والدتي عليّ وعلى جدي بعد يوم من تشييع ثلاثة من طلبة المدارس حينما اندلعت مواجهات في شارع جامعة النجاح التي حلمت بأن أتخرج فيها. ستتقدم نحو جدي. ستهبط وتقبل يديه، وتقول: «عمي، أترجاك يا عمي، ما بدي إياه يرجع مثل أبوه!»

- مش فاهم يا عمي.

- خليه يسافر ويدرس بعيد.

- إنت بتقدري على فراقه.

- بُعد كم من سنة أفضل من أن يموت صدفة ويعود إليّ محمول.

telegram @ktabpdf

لن أنسى هذا الحوار، وسأعرف أكثر عن أخوالي الذين يعيشون في بلاد الغرب، يعيشون ويدرسون ويموتون، وأنهم يحبونني حبا جما. وسأتورط ساعتها برعب جديد لحكاية جديدة؛ وهي اختيار الحنين والغربة في مواجهة «احتمال الموت». وهذه الأم المسكونة بهوس الخبر السيئ والمفاجأة، وكيف كانت تخفيني في شالها الأسود الطويل عندما كانت تتحرك داخل المدينة، وتسهر إلى جانب فراشي؟ ما هذه الأم التي تختار وجع الفراق أمام احتمال الموت؟! وجدي ونظرته العميقة، وقد بتّ عنده، هذا الجد الذي حضنني رغم أنني أصبحت في طوله، ومدّ يده على كتفي وأنا جالس إلى جانبه على الفراش، وسألني:

- ما رأيك يا سيدي؟

- لا أدري.

أجبته هكذا وصمت. مد يده وطوق كتفي وعصرني إليه. وقتها لم يكن لدي رأي، أو كان رأيي هو رأي جدي، إن أراد أردت، وإن تحمّل الحزن تحمّلت. كنت أنا ظله، قلت له: «المهم رضاك». اقترب مني، ونظر إليّ بتمعن. كانت لحيته تغطي وجهه عندما اقترب، بشرته المائلة إلى السمرة، أنفه المقوس، حاجباه العريضان الكثيفان، أصابع يديه الخشنة، رائحة عرقه وتبغه، عيناه السوداوان الغائرتان خلف حاجبيه، اقترب وقال: «اللي خلف ما مات». في تلك اللحظة كنت أعتقد أنه جدي ووالدي، بل هو أكثر من ذلك، كان والدي

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

وجدي وصديقي. وفي الليل عندما كنت أركب خلفه على الحصان عائدًا من الحقل في ليالي الخريف، أحس بأنه ظل الله؛ لا يجوع ولا يبرد ولا يحزن ولا يموت. وأنه رغم شقائه وسهره وشرائه لمحل في نابلس سجله باسمي، كان يشعرني بأنه سيعود إلى عين حوض. قال في تلك الليلة: «لن أموت قبل أن أعود إلى عين حوض، وسأدفن تحت جذع الخروب إلى جانب أجدادك». صدقته. بالفعل صدقته.

الآن، الآن في هذه الزاوية الرطبة الخشنة، أسمع صوت الجنود وقعقعة السلاح وطرق الأبواب، وأبيت في دالية الكرمل وصوت الريح والمطر يضرب الشباك الصغير. ومثل عين الذئب في الظلام، وحدها الأضواء على السور وأعمدة الكهرباء في محيط السجن. سأشعر شعورا غريبا: هل أنا في أرض العدو فعلا؟ وهل يتآمر المكان على حفيده؟ سأسمع صوت الحطب المحترق من موقد جدي عند قوس السور الجنوبي لمنزلنا في عين حوض، سأبرد أكثر وأكثر، فالجروح والكسور تنكشف أمام البرد والذكريات، وأشعر بأنني أجفّ وأبتل عرقا وأتيبس. وحدها رائحة البحر التي تتسلل دون تدخل هنا.

تعيدني هذه الأجواء المليئة بالرعب إلى رعب الليلة التي سأسافر فيها، ستراقب أمي سريري، سأحس بها، سأتظاهر بالنوم، ستجلس على كرسي إلى جانب السرير تتأملني وتدعو لي، وتمسح على لحافي، ستغطي دموعها وتخنقها، سأتظاهر

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بالنوم، سأعدّ أنفاسها، لم أشأ الوداع، فأنا أكرهه وأخافه؛ فهو مواجهة احتمال الموت واصطياد النظرة الأخيرة. لا أريد ذلك، فأنا سأحاول التسلل. كيف اختارت هذه الأم الشوق المزمن في مواجهة الاحتمال؟! وكيف هزمها شعور عودتي بكفن مثل والدي؟ وكيف كبر حزنها؛ لتسقط المقولة التي تقول إن الحزن يولد كبيرا ومن ثم يصغر؟ لا أدري!

جدي سهر عندنا تلك الليلة حتى ساعة متأخرة، وتواعدنا أن نلتقي في الصباح ليأخذني بسيارة إلى الجسر. غادر متأخرا، توقف فجأة، وضع يديه على كتفي قائلا: «يا سيدي الله ييسر أمرك». نظرت إلى عينيه، وكانت المرة الأولى التي لم يستطع فيها إخفاء دموعه. ضمني بقوة إلى صدره لفترة ليست بالقصيرة. حضنني صامتا. عرفت أن كلماته ابتلعها حلقه الجاف ودموعه تلمع فوق لحيته. انسحبت من بين يديه وأدرت وجهي نحو داخل المنزل. لم تلحقني نظراته. مشيت خطوات. سمعت صوته المجروح: «يا سيدي، ما تنسانا، وما تزرع زرعك في بلاد الأجانب». دون أن أدير وجهي قلت له: «سأعود يا سيدي، سأعود، وسأذكر عين حوض». شعرت بأن جدي كان يحسّ بأنه لن يراني مع أن الاتفاق كان أن يعود صباحا لينقلني في طريقي إلى الحدود التي ما زالت تسمى (الجسر).

ستسيطر على أمي غفوة وهي إلى جانب سريري. سأتسلل وسأحمل حقيبتي وحيدا مع بداية البرد. سأغادر وقت

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الفجر، وسأنظر نحو ساحل البحر وإلى حيفا التي لم أرها. سيظهر شفق البحر المائل للاحمرار من بين تراكم الغيوم الداكنة عند خط البحر مثل خيط فضي. أترك والدتي وجدي نائمين، وحيدا لا أدري أصلا إن كانت نابلس تحت منع التجول أم لا. سأهبط مشيا نحو الشارع الرئيس من جبل جرزيم إلى ميدان المدينة «الدوار»، سأشمّ هواها للمرة الأخيرة، سأغادر شوارع الطفولة في سوق الحبوب والتوابل في البلدة القديمة، لن أرى الكنافة الساخنة ولونها المتجمر، ولن أسمع ابتهالات المسجد الكبير والمسجد الحنبلي وقت العيد ورمضان، وضجيج حياة الصباح وصواني الشاي والقهوة الطائرة فوق رؤوس المارة. سأغادر أقواس المدينة في القريون، ورائحة التراب الرطب مع القهوة والتوابل والخبز، سأغادر المدينة التي ولدت فيها وأحببتها بشكل مهدد؛ فهي مدينتي المؤقتة، سأعيش ذاكرتي على شكل تناسخ مع عين حوض، وسأمشي.

سأصحو مفزوعا، شبه مبتل، أرجف وستختلط لدي الحواس، لا أدري إن كان كابوسا. سيخيم علي جناحان هائلان، سيكون ظلاما دامسا لا يشبه الظلام العادي، ظلاما مثل الصفيح له رنين ويخدش، سيغطي الجناحان أفق ناظري، ومن بين الجناحين سيخرج صوت من عينين واسعتين غائرتين، سيصفق الجناح الأيمن فوق رأسي فأصحو مفزوعا، سأحاول الهرب، لكن قوة غريبة ستعيدني إلى الفراش، من بين العينين سيخرج صوت مثل النسيم» اهدأ. اهدأ».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

سأحاول الخلاص، مرة أخرى سيعيدني الصوت، سأصيح دون جدوى، سيتقوس الجناحان حولي، سأبدو مثل نقطة داخل قوس عظيم، سيقول الصوت مرة أخرى: ستغادر هذه الأرض، لكن اعلم أنك ستكون وحيا جديدا!

قبل أن أرد أو أفتح فمي، ستطبق عليّ قوة عظيمة، سأغرق في العرق، وسيكمل الصوت: «سترث آلامك، وستبلغها في وحي جديد ولو بعد حين، وسترث معرفة الغيب، وستكون لك الكرامات. اصبر. اصبر».

سأنهض مثل المغتسل بعرقه، هادئا، مطمئنا، سأجتاز نابلس الحذرة بين منع تجول وإضراب وجنازات، سأغادر نابلس، وسأسمع للمرة الأخيرة أصوات الرصاص المتقطع ودخان المخابز، وقباب مساجدها الخضراء. سأجتاز المتوسط، سأحس بغيلان تتسلل صاعدة من البحر الداكن لتأخذني في الغياهب فوق الأطلسيّ بتيار غاضب سينتشلني من الطائرة ويجعلني طعاما للقرش، سأغوص، أجترّ حلمي، وأفكر فيه. سأصل ليلا. كان خالي بالانتظار في المطار، سيكتب اسمي على ورقة باللون الأحمر، ستلتقط عيني الاسم، سأهرع إليه، فقد عرفته من خلال الصور التي كان بعثها لأمي مع الأعياد، سأحبه من النظرة الأولى، سيحضنني بشغف وحنان، سيقول: «ما شاء الله، صرت شب زي الوردة، صرت زلمة». سيحملني في سيارة ضخمة، ستجتاز الغابات وتخترق المطر، وستضرب

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أغصان الشجر مرايا السيارة، سيضيء البرق شوارع البلاد الواسعة، سنصل بعد عشرين دقيقة بيتا كبيرا أبيض اللون، يحمل خالي حقيبتي، يفتح الباب فيبهر نور المنزل عيني، بلطف شديد ستستقبلني زوجة خالي، قائلة: «بعثك الله لتملأ علينا البيت بعد زواج الأولاد».

سأتناول الوجبة الأولى في البلاد الغريبة بخبز وزيت لا يشبهان خبز نابلس وزيتها، ستسافر عيناي وخيالي نحو المتوسط، وسترن كلمات أمي وجدي في أذني، حنين عميق يدفعني نحو البكاء. يتقدم خالي، يريني غرفتي، ويقول: «نم الآن، الصباح رباح».

في يوم الجامعة الأول، سيصطحبني خالي بلغته وعلاقاته، سيسجلني في معهد اللغة، بسرعة جنونية لم يتوقعها سأتقن اللغة الإنجليزية، وسأعمل معه موظفا للاستقبال في أحد معارض المفروشات التي يمتلكها.

عند كل صباح، سأهاتف أمي، ستلتقط الهاتف وتردّ من الرنة الأولى، لم تتأخر مكالمة واحدة. ستوصيني بالنجاح وبخالي، وستبلغني وصايا جدي وسلامه.

المرة الأولى التي سأراها فيها ستكون عند تخرجي من قسم التاريخ في الجامعة التي درس فيها خالي. سنذهب أنا وخالي إلى المطار في التوقيت الذي استقبلني فيه قبل نحو خمس سنوات، لكن دون مطر. سأرى أمي وسأعرفها من ثوبها

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

المطرز. ستتثاقل خطواتها. سأطلب من خالي أن أراها أولا، سأهبط عند قدميها، سترفع رأسي بقوة، ستدمع عينا خالي، وسيحضنها بقوة: «من كان يعلم بأن الله سيجمعنا هنا بهذه الطريقة»؟!

في تلك الليلة سيعاودني الحلم أو الكابوس، سأنام إلى جانب أمي مثل صغير في نابلس، وسأرى الجناحين العظيمين، وهمهمة والصوت: «ولو بعد حين»!

سأهدأ بسرعة عندما أرى أمي أمامي، سآكل وجبة الإفطار الأولى بصحبة والدتي منذ خمس سنوات، ستحمل أمي زيت الزيتون والزعتر، والبقلاوة والكنافة النابلسية المجمدة، والجبنة البيضاء المغلية. سآكل مع خالي بنهم، وسأحس بتصالح مع حواسي وقتها، ستصبح رائحة الزعتر أرضا، ورائحة الجبنة قوسا من أقواس نابلس القديمة، وستعيدني رائحة الزعتر إلى همهمة الصغار وقت فرحتهم في خان التجار. ستطعمني أمي بيديها، سأنفجر سعادة في تلك اللحظة، وسأعلم بعد حين، أن والدتي وجدي ووالدي وأنا كنا ضحية رؤية حام لعورة والده نوح منذ أيام الطوفان العظيم، وأن رواية الأنبياء ستتحول إلى رواية للشواذ، وتجار النساء، وصانعي العجول الذهبية، والمتلذذين بطعم الدم.

الآن في دالية الكرمل، التي لا أذكر ولا أتمثل إلا اسمها: إنها البلدة التي تقع على حدود عين حوض من الناحية الغربية، أقبع منكمشا، اقتربت ساعة الفجر، أتقلب بين هذه الجدران

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

المسودة الرطبة، أترنح بين الغفو والصحو وربما الإغماء، سأستعيد لحظات عمري المتوترة مشهدا مشهدا، سأفزع وأصحو، ويرتطم الجدار برأسي، أتلمسه، فأحس بدم حار يسيل على جبهتي. سيطرق الجندي الباب ويصرخ: «اصح يا قاتل».

في الليلة التي ستسافر فيها والدتي، وقد مر الأسبوعان اللذان قضتهما معي ومع خالي مثل ساعات اللقاء، لم أنم بانتظار الوداع. كانت ليلة مغادرة أمي مثل ساعات العصر أيام العيد في نابلس؛ حيث يخيم الغروب، ومعه تخيم علي الكآبة بأن العيد الذي يأتي بالهدايا والحلوى لمّ عباءته ورحل. كان العيد لقاء خياليا مع والدي، سأصحو وجدي وأمي نحو المقبرة، سأصمم أنا على زيارة قبر والدي الأول الذي مازال شاهده مثبتا: «هنا قبر الشهيد المجهول» بخط من دهان أسود، وسأعود لزيارة قبر والدي النهائي في أم البساتين. سأتخيل بأنه يمسك يدي ويشتري الملابس. سيصحبني إلى شارع الأنبياء، وشارع حطين ليلة العيد، سيشتري السكاكر ويطعمني الكنافة، وسأعود معه أحمل الأكياس نحو أمي، سأفعل كل ذلك.

عندما نامت والدتي إلى جانبي في بلاد المحيط البعيدة، كان الجو صافيا وقفت على النافذة أنظر إلى السماء، وإلى الله وإلى جدي وإلى وجه والدي الأخير. سأنام إلى جانبها على أريكة مقابل السرير، سأنام لأحاول الهروب من المتوقع والمحتمل، ورعب الحكايات، فكيف يعيش من فتح عينيه على احتمالين؟

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أي القبرين هو قبر والده الحقيقي؟ وما هي الحكاية التي دفعت الجنود الإسرائيليين، نسبة إلى النبي إسرائيل، للتندر بعملية قتل معلم عائد من مدرسته إلى بيته.

سأنام خائفا من حكاية جديدة ومن كابوس جديد، سأناجي الله أن يحد من خيالي وأنام. كان وجه أمي النائم على المخدة البيضاء، وقد شاب شعرها، وبدت ملامحها وبشرتها تذبل، تقمصت روحها وقلت: «من يعتذر لهذه الأم، ويكفر عن خطاياه معها»؟ كان وجهها آخر صورة في عيني قبل أن أغفو.

صحوت فإذا بوجه أمي يرتطم بوجهي، وهي تصرخ: «بسم الله الرحمن الرحيم. بسم الله الرحمن الرحيم».

كانت مذعورة، ترتجف وتمسح وجهي بالعرق الذي بلل جبهتي والجزء الأعلى من قميصي. كانت عيناها مخنوقتين بالبكاء، وشفتاها ترتجفان. تماسكت وقمت قائلا: «حلم بسيط يما. حلم بسيط يما».

مشيت نحو الحمام، وقلت لها:

- لو تنتظرين قليلا. أياما معدودة يا أم الوحيد.

- لا تقل الوحيد، فأنت عندي بألف رجل، سيدك والدار ووالدك بانتظاري.

عند مدخل المطار ستخرج أمي محفظة زرقاء، ستعطيني إياها قبل ولوجها المدخل المخصص للصعود إلى الطائرة، ستقول لي كلمتها الأخيرة: «هذه من سيدك»!

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ستغيب بعدها، وسأعود إلى أقرب كرسي وأجلس، سأفتح المحفظة، وسأرى هوية والدي، هويته التي اغتيل وهو يحملها ودفنت معه سنتين. سأرى صورته بالأبيض والأسود وقد شكلت الرطوبة حولها خطوطا صفراء: وجهه الدائري الجميل، وشعره الناعم المسترسل، وعينيه اللوزيتين، وأنفه الرقيق وخط شاربيه الرفيعين.

عندها فقط تذكرت لماذا صحوت مفزوعا من نومي.

بدأت استرجع تفاصيل الكابوس؛ لقد حُشرت عاريا في برميل خشبي، المنطقة التي حشرت فيها تشبه في أوصافها وتفاصيلها وإطلالتها على البحر ما كان يحكيه جدي عن عين حوض، وشجر الخروب، ووادي فلاح، وصوت العصافير يملأ المكان. كنت محشورا في برميل خشبي وقد التصقت ركبتاي في صدري وأسفل ذقني، وحولي مجموعة من الرجال الملتفين بالسواد يحملون الشموع، وقد بدؤوا بدق المسامير، وأنا أهرب منها جاهدا.

مسمار وراء مسمار، اخترق الأول كتفي الأيمن، فبدأ الدم ينزف نحو قاع البرميل، هربت وعصرت جسدي عكس المسمار المقابل، فاخترق مسمار خاصرتي، بدأت أشعر بدوار وبرغبة جارفة في التقيؤ. اخترق مسمار أسفل ظهري، كنت أحس الألم من الصوت أولا، واختراق المسمار لحمي ثانيا. دق

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

مسمار فوصل أسفل ظهري، فصرخت حتى شعرت بأن حلقي تفحم، ونشف ريقي من الألم .

أصبت بخدر شديد يشبه الشلل، وشعرت بالدم يغطي مؤخرتي. أتنفس بسرعة واللعاب اللزج يسيل حول فمي. شعرت بطيور بيضاء تقترب مني، بدأت أشعر بالخدر يتسلل إلى جسدي، واختراق المسامير للخشب، وصوت المطارق يتزايد، فأنادي الموت ليسرع. اخترق مسمار رقبتي من ناحية الحلق فتفجر الدم على شكل قذف أفقي نحو جدار البرميل المقابل، بينما كانت ضحكات الرجال السود تعلو وظلهم مع الشموع يرتفع حولي، وكانت همهماتهم تسبح الله. بدأ الدمع يختلط بالدم على وجهي مع المسمار الأخير الذي اخترق عيني اليمنى. اهتززت ورجفت وضغطت على أسناني ولساني حتى شعرت بأنه انقطع، عندها شعرت بالدم الحار يغطي قدمي ومؤخرتي وعضوي، وقبل أن يكلمني وجه غريب سقط على شكل ضوء نوراني من السماء، وقد بدأ الرجال السود يفرغون الدم في كؤوس، كان صراخ أمي أسرع، فصحوت.

سأحمل الهوية وأعود مع خالي إلى المنزل، فأنا سأعاود الالتحاق بالجامعة للدراسات العليا، فقد ورطني التاريخ برعب الروايات، منذ طرد آدم وطوفان نوح وبقرة موسى وعجل هارون. غادرت التاريخ بعد أن تيقنت أنه لا يوجد تاريخ؛ التاريخ شهادة زور الحاضر، التاريخ نرجسية الدليل،

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

فأنا وجدي وأمي ووالدي وابنتي وزوجتي، كلنا، كلنا دفعنا ثمن تاريخ الله، دفعت ثمن رواية أن يرى حام عورة نوح، وأن يعتذر الله ليعقوب عن تغلبه عليه، وأن يحاصر اليهود في خيبر!

سأبدأ دراستي العليا، وسأغير مجرى بحثي نحو الأساطير القديمة، فقد انتقلت بين قبرين ووطنين وعالمين دراسيين، وسأعرف أنه لا فرق بين الأسطورة والحوادث؛ فالله الذي ذبحني كان اختيارا لشخص مات قبلي بآلاف السنين، وأنني حشرت في الظلمة مع آلهة الموت، ربطت بالحديد والنار، ودفعت ثمن أن تغدر ابنتا لوط بأبيهما النبي، وتشربا ماء الحياة سفاحا من جسده، ومثله أن يصنع هارون العجل للتائهين في الصحراء ليعبدوا الله، وبقرة موسى التي ذبحها لتنطق بالحق والشهادة، وإبراهيم التاجر بامرأته والمنكر لها، وداود الذي غدر بقائد جيوشه ليرث امرأته. يحق لهؤلاء اختيار آلهتهم وشياطينهم وأبناءهم.

يحق لهؤلاء وللرواة والمتخيلين اختيار آلهتهم وشياطينهم وأنبيائهم وتجارهم، لكن لا يحق لهم اختيار ضحاياهم وقرابينهم، لذلك فالعالم لم يتحضر، وأن الله «الأرضي» حمل أعباء وآثاما وروايات لم يعد يطيقها، وأن أهلي وأنا شواهد على فشل العالم، وفشل رسالة الأنبياء بانتهائها إلى نقيض ما دعت إليه. فبدأت بحرية اختيار الرب وانتهت إلى حرية اختيار الضحية.

في مسرح، عند التقاء غابة الراهب بالشارع الرئيس العابر للولايات الجنوبية، في مسرح تاريخي قديم، علقت على أبوابه

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بعض إشارات (الهنود الحمر)، وإعادة تمثيل لمشهد الموت والرحيل، «في البرد والريح والجفاف» الساعة التاسعة مساء. فقد كنت أحب العزلة في الأجواء المكتظة، أجلس عند زاوية المقهى، وأحجز المقعد الأخير في السينما. حديثا وبعد الألفة مع المدينة والاحترام العميق الذي وجدته عند أساتذتي، وذلك التقدير العميق لإنجازي، أستغرب كيف يرى هؤلاء الإنسانية هنا ولا يرونها هناك؟! كيف يبكون في المسرح ولا يبكون في الواقع؟!

في مسرحية غريبة، سأجلس وحيدا عند الزاوية اليمنى من «المسرح الخالد». سأحدّق في التفاصيل، وستبهرني عبقرية الممثل. كان الممثل مهرجا يعود من مسرحه إلى غرفته الخاصة؛ يفتح الباب، وما زال يرتدي ملابس التهريج، سيضيء الشمعدان، ويشرب كأسا من الماء، يحاول أن يأكل كسرة الخبز مع زبدة الفستق، فيعيدها. جلس وحيدا كئيبا، فنظر إلى علاقة ملابسه عند زاوية الغرفة، وكانت الإضاءة قد أظهرت الغبار المتراكم على أكمامه وأكتافه، ينصب ماشيا نحو المعطف الأسود، يمسك الكم الأول ويضعه على كتفه، في حين يمسك الكم الثاني ويلفه على خصره ويبدأ بالصراخ:» هيا نرقص! هيا نرقص»!

ينتزع المهرج المعطف، ويلفّ في الغرفة، يسقط المعطف، فيتلوى الممثل ألما، يصرخ ويلمع العرق المتصبب على وجهه، وقد غسل الغطاء وجهه الأبيض، يخاطب المعطف بصوت مجروح: «تكلم وتنفس. أين حرارتك؟ تكلم».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يصرخ الممثل ويتلوى على الأرض، فيهرع طاقم طبي نحوه. تدب الفوضى، وتقع الحيرة بين الحقيقة والتمثيل، ليتقدم مدير المسرح ويعلن أنّ الممثل كان يعاني من نزيف حاد، وأنه صمم على المغامرة بحياته، وعاش الدور للحظة الأخيرة، ورفض إلغاء العرض. دون أية مقدمات، وجدت نفسي أصرخ وباللغة العربية: مش معقول! مش معقول!

هرولت نحو خشبة المسرح مستمرا في الصراخ. وقتها سيتقدم نحوي بشارة، ابن مدينة الناصرة الطبيب القادم للتخصص في الجراحة، سأرى في عينيه الخوف والتأثر، سيقترب مني، ويسال: «أنت عربي»؟

سأجيبه بأنني فلسطيني من حيفا، سيقول لي إننا جيران، فهو يعيش في الناصرة، ويعمل في مستشفى بحيفا، سيقودني قليلا لنخرج نحو الباب الرئيس، سأحس بطرقات خفيفة على كتفي الأيسر، سأزيح وجهي، فإذا بشابة تحدثني: أعجبني تأثرك، لكني للأسف لم أفهم ما قلت.

تستمر بالمشي معنا خطوات. ستطلب مني أن نلتقي غدا في المسرح إن أمكن، سأجيبها بالقبول. سيرافقني بشارة إلى منزلي وهو غرفة بسيطة فوق مكتب خالي، استأذنته أن أقيم فيها لإطلالها على» نهر السماء» كما كان يطلق عليه، وهو نهر صغير يسير بمحاذاة الشارع العابر نحو العاصمة، تحيط به الأشجار الكثيفة، فتكسبه سحرا غريبا، وربما هو شوق للبحر والنهر

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أورثته من حكايات جدي. سيدخل بشارة ويصنع الشاي، قائلا: «يا رجل، من زمن وأنا أبحث عن واحد من البلاد».

سأخبره أنني من عين حوض قبل النكبة، وأنني من نابلس وأعيش فيها، وأن جدي هو سليمان الصالح ابن الشيخ محمود، الذي كان يمتلك محلا صغيرا للحبوب ليس ببعيد عن مسجد الشيخ القسام في شارع الاستقلال في المنطقة الواقعة بين المقبرة ومركز شرطة الانتداب البريطاني في قلب حيفا، سيصاب بالحزن، وسيقول بأنه سمع عن فلسطيني متفوق هنا، لكنه لم يتوقع بأن أكون أنا.

سيبيت بشارة عندي تلك الليلة، سأكتشف من تعليقاته ومن سلسة كان يعلقها في رقبته تدلى في منتصفها صليب بأنه مسيحي. ستتغير ملامحه لبرهة، عندما أخرج أوراقه ليستلقي على الأريكة، سأرى بطاقة هويته الزرقاء، سيقول بأن الصليب هدية من والده ليبقى في رعاية الرب، وبأن خاله كان يمتلك بقالة في شارع الاستقلال، وأن خاله يعيش هنا في الولاية الصحراوية، بعد أن شاركه في منزله في حيفا على شاطئ البحر بالضبط مهاجر بولندي بدين مع زوجته التي كانت رائحة عرقها تفسد المنزل، قبل أن تصادر محكمة إسرائيلية عام 1956 البيت منه، وتطلب منه المغادرة.

في هذه الليلة المسرحية، وفي المساء التالي سأذهب للقاء الشابة الجميلة التي واعدتها للمرة الأولى بعد نحو سبع سنوات

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

في هذه البلاد، كان مسيري فيها لا يتجاوز عتبة العمل ومنزل خالي، وقاعات الدرس. ستكون «ربيكا» هي كاتبة النص المسرحي ومعدة الحوار، المرأة الأولى في حياتي، والأخيرة التي سأتحسس عقلها وقلبها وجسدها.

في دالية الكرمل، تسمع همهمات الجنود وصرخاتهم، وصوت مزاحهم مع المجندات، سيطرق كل من يمر من أمام الزنزانة الباب برجله، حتى لا يسمح لك بالتذكار ولقاء ذاتك وذوات محبيك، إنهم يحتفلون (بعيد الاستقلال) حولك، وليس بعيدا عن منزلك ومنزل جدك، الذي ما زالت بصمات قدميه تطبع عين حوض ودالية الكرمل، وربما تكون بعض الحمامات الهائمة فوق هذا السجن من نسل حماماته.

سيأتي بشارة الطبيب في مثل هذا الوقت من العام الماضي، سيريني بطاقة معايدة وصلت إليه من (السفارة الإسرائيلية) بمناسبة عيد الاستقلال، بينما سيرى لوحة معلقة على الحائط تخليدا لذكرى النكبة، سأقول له مازحا:

- أنا أحتفل أيضا بذكرى رحيل جدي عن حيفا وعن عين حوض.

سيضحك قائلا:

- والله ما أنا عارف، أنا هون وإلا هون؟!

سيسرح، وسيخبرني أنه فقط فهم لماذا يصرّ خاله الذي غادر حيفا منذ عام 1956 -وقد بلغ من الكبر عتيا- على أن

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ترسل له صورة لمنزله كل شهر: لأبوابه الحديدية المقوسة، وشباك الشرفة الغربية التي تتعلق فوق البحر. نعم سيقول لي بشارة، إن منزل خاله البعيد مسافة قريبة من شارع الاستقلال، والذي يضرب الموج جداره الغربي إذا اشتد، وسيخبرني عن الغرفة الداخلية التي ولد فيها خاله، وشجرة الزيتون التي زرعها إلى يسار الشرفة المعلقة بجانب السور، سيرى شجرة الزيتون وقد كبرت وتوسع عرقها ليصل محيطه نحو مترين، سيجد لوحة صغيرة على السور الخارجي مكتوبا عليها «بيت إيلا»!

سيجيبني بشارة بأنه يعلم كل ذلك، لكن الأمر تغير؛ فأبناؤه ولدوا وتعلموا العبرية، وهو أيضا يعمل مع أطباء يهود في مستشفى حيفا، وبعض من أقاربه خدم في الجيش الإسرائيلي، لكنه يصر على أنه مازال يعمل بوصية المحبة الربانية، وما زال ينصر أبناء شعبه. سيبكي بشارة عندما يحدثني في ليلة أنه كان يجري عملية لشاب من نابلس أصيب بجروح خطيرة في مواجهة مع الجيش الإسرائيلي أثناء اجتياح نابلس عام 2000. سيجري العملية في مستشفى رفيديا الذي يقع على مرمى النظر من شرفة منزلنا في جبل جرزيم، سيتذكر صورة الطفل الذي يحاول اقتحام غرفة العمليات ليرى والده، كيف لطفل لم يتجاوز الثامنة أن يهجم على طبيب ويتوسل ويقبل يديه ويقول: «أريد والدي معنا في البيت، لا أريده أن يموت، لا أريد أن يقولوا لي: لقد ذهب والدك إلى الجنة». سيبكي بشارة،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وسأتذكر كلماته: «أنا متأكد من أن المسيح بكى تلك الليلة. لقد توفي الأب أثناء العملية، وغادرت أنا باكيا من الباب الخلفي، وكان نحيب الطفل يملأ ممرات المستشفى.

ستكون ليلة حزينة، سيبيت بشارة عندي، وسيعيد على مسامعي، وسيصف لي الطريق من الناصرة إلى حيفا، حيث الهبوط نحو البحر وبموازاته: إلى يمينك البحر، وخلفك الجليل. ستكون الطريق منعرجات نحو الأمس، إلى ما قبل عام 1948، حيث المراعي، وبعض البيوت بالحجارة السوداء الداكنة التي هجر منها أصحابها وبقيت رائحتهم، ورائحة البحر. اللافتات الكبيرة باللغة العبرية تنغص المشهد، فاللغة الطارئة تعطل الحواس. سيصف جبل القفزة، وجبال الجليل، والشعور الرهيب في الحياة تحت قفزة الرب المصلوب بعد حين، وبأنه ما زال يحمل روح المسيح في دمه. سيقول لي: «لقد أعطينا العالم الجمال والحب والآلهة والأساطير، لكنهم أورثونا القبح والكراهية والشياطين». بشارة سيكون الوحيد الذي يدخل بيتي، سيحدثني عن نابلس، وسأحدثه عن عين حوض، وسيسمي حيفا «حيفا المكرّمة»، التي كان يعتبرها «هوة روح الرب» تماما مثل الناصرة، فجمالها يتعرف على أصحابه كاللغة والروح، يورث السكينة، وتحس بأنات المسيح تأتي إليك عبر نسيم البحر وخضرة الكرمل، والتقاء الجليل مع أرض الأرز.

أين أنت الآن يا «ربيكا»؟ صنعت لي الشاي وقدمته عند اللقاء الأول بيننا، تحدثت إليّ عن سبب انفعالي، قلت لها: إنها

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

فكرة عظيمة وجبارة عن احترام الحياة والواجب، قالت لي أن حساسيتي كانت عالية، وأنها لم تر موقفا مثله رغم عملها الطويل في المسرح.

كم كانت جميلة في تلك الليلة. ما زلت أذكر شعرها الخمري الناعم المنسدل، وعينيها العسليتين الواسعتين، وأنفها الطويل الرفيع. شفتيها مرسومتين مثل شفاه التماثيل المنحوتة. أسنانها مصفوفة كالأسنان في لوحات الإعلانات. جسدها مكتنز. لها كفتان طويلتان بأصابع طفولية. تحدثنا، وعرفت أنني من حيفا ونابلس. شرحت لها بعض قصتي. ودعتني بقبلة على الخد، كانت القبلة الأولى من امرأة، المرة الأولى التي أتذوق فيها طعم أنفاس امرأة، وأشمّ لمستها.

سنلتقي أكثر من مرة، وستأتي إلى غرفتي، تصنع لي كأسا بعد أن ألحت علي بالشراب، وعلمتني بلا شك. سأسمع معها الموسيقى، وسأبدأ بشرح الاستعارات لها باللغة العربية. ستأتي يوما وأنا أسمع «أم كلثوم»، تغني «رق الحبيب». ستسألني عن المعنى، فأشرح العلاقة بين الزمن والخيال، كانت تعيد المقطع أكثر من مرة للتجلي: «إيه يفيد الزمن مع اللي عاش في الخيال». ستصاب بالذهول من عمق التصور، وتسألني إن كنت أحب، فأخبرها أنني في حالة عشق مزمن، فأنا مفتوح على الحب دون محبوب! تتساءل إن كنت قد تعودت سماع أي شي بالإنجليزية، فأجيبها بالنفي. تتفاجأ بذلك رغم أنني أتقن اللغة. أخبرها أن

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

اللغة تربى مثل طفل، فهي عضو لا يعار، ذروة شعوري تمتد إلى الصحراء والحرمان والخوف والوحي، هناك هويات صوتية تنتجها هويات مكانية وحلمية وتخيلية لا يمكن ترجمتها وهضم صورها، وأن التخيل والنشوة لا يستعاران ولا يعاران، هناك دائما حالة من الفراغ تحتلها الخصوصية.

ستأتي إليّ كثيرا. في إحدى المرات ستزورني في وقت متأخر، سأشتاق إلى جمالها ورقتها وثقافتها وعشقها للمسرح. سأحدثها عن حالة التشوش التي أعيشها؛ بين مكانين وقبرين، واحد ولدت فيه وتشوشت بحبي الكامل له وهو نابلس، ومكان لم أره، لكني أعدت استنساخ حكايته وتقمصها. ستأتي إلي كل مرة مع أغنية مختلفة، كنت مرة أستمع لعبد الوهاب «يا جارة الوادي»، ستطلب الترجمة، ستسرح وتستغرب من طريق انفعالي مع الموسيقى والأغاني، فأقول لها: «إن هؤلاء يعبرون عن حلمي وخيالي». ستخلع معطفها الخارجي، سأدقق في تفاصيل جسدها الذي يلمع من تعرق خفيف أعلى كتفيها المنحوتين، سأنظر نحو عمق ذراعيها مثل ذراعي تمثال، سيبهرني جمالها الجانبي، وتناسق أنفها مع شفتيها، والتفاف شعرها حول أذنها وفوقها، حزام حمالة صدرها الرقيق الذي غاص قليلا في لحم كتفيها المكتنز. كان اللون الأسود مع جسدها الأبيض والحمرة الخفيفة المحيطة بحمالة الصدر فتنة لا تقاوم. انتبهت إليّ وابتسمت ابتسامة سريعة مع إغماضة عين طويلة، اقتربت

نحوي، ووضعت يدها على عنقي وتحسست أسفله، نهضت مع انتهاء الأغنية، غيرت الموسيقى، وسكبت لها قليلا من الشاي، تقدمت نحوي تهمس:

- ما رأيك أن أحول حكايتك إلى مسرحية؟

- لا أريد، ومن قال لك إنني شحاد تعاطف، أحدثك بصفتك صديقة وليس كصاحبة عمل.

اقتربت مني معتذرة، حضنتني بقوة، وكررت كلمات الأسف. كانت رائحة عطرها مع عرقها الخفيف هي الرائحة الأولى لأنثى تبشر بالحبّ، وربما الشهوة، وهي منطقة تعطلت في ممارستي للحياة. سأشمّ رائحتها أكثر، سأحسّ بحنين تجاهها، ستلمس مقدمة ثدييها صدري، وستطوقني بكلتا يديها، وبشكل تلقائي سأحضنها وأطوق خصرها الرقيق، وستلمس أعلى كتفيها، بين العنق والأذن شفتي، وستهبط يدي إلى أعلى مؤخرتها، لكني سأنسحب. سأتأكد من أنني أحبها فعلا، فقد عشت في عالم من التعري، ولم تكن تستفزني مشاهد أكثر من هذه، ولم أشعر برغبة في التواصل مع امرأة غيرها. سأحبها فعلا، وستوقظ فيّ خميرة غطّتها الكآبة وعطلها الحزن، كانت هي من ألحت علي بالحب دون أن تخجل، أو تجعلني أشعر بأنها تصطادني.

في تلك الليلة سأستسلم لنوم لذيذ، سأتقلب، وستعاود رائحتها إثارتي، ستقودني حرارة جسدها وحبي لها إلى مغامرات

أبعد، سأنام وسأصحو متأخرا، سيفاجئني حلم غريب، ستنام «ربيكا» إلى جانبي، سأجهد لملامستها، واحتضانها، لكن قوة غريبة ستبعدها عني دون أن تأخذها مني، وسأحاول الالتصاق بها فعلا، لكن عند هذه الدرجة ستبتعد دون أن تذهب، مثل مغناطيسين متنافرين.

سيأتي إليّ بشارة بعدد من الصور لجبل القفزة الرهيب، سترى دون أن ترى آثار يدي الرب وقدميه قبل الغياب، وسترى أفق مرج ابن عامر، وسترى صورا لعكا والبحر ومسجد الجزار. سأشمّ رائحة الماء، وسأسمع خريره وأغاني الصيادين، وهمسات المساء على شرفات منازلها المعلقة فوق البحر والصخر، سأرى تفاصيل أصابع البنائين على الحجارة التي لم تسمع سوى العربية، والمكتوب عليها بالعبرية الآن، سأرى جدي في المكان. عندما يعرض الصور الأولى لعين حوض، سأرى اللافتات بالعبرية، وتماثيل ومنحوتات ولوحات، وسيهبط قلبي عندما أرى البحر حصتنا، الموازي لبيتنا. سيريني المنازل المحيطة بالمسجد الذي أصبح بارا باسم «بونانزا»، سأضع منزلنا ضمن احتمالات ثلاثة، سأقول لبشارة: «إما هذا، وإما هذا، وإما هذا». سأفهم لماذا لم تهدم إسرائيل عين حوض، وتركتها قرية للفنانين؟ سيقول بشارة ضاحكا: «إنها (دولة) تقدس الفن والجمال وحماية الإرث الإنساني، لذلك ستعيد هي التعبير عن حلم الضحايا وإنسانية القاتل. وسيعلم فنانوها العلاقة الأزلية مع المكان، سيرثون الأسماء والذكريات وحتى مشاعر الضحايا»!

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

سيعرض عليّ بشارة صورا لشجر الخروب على الجدران الحجرية العتيقة التي لفحتها الشمس، وداعبها الريح والمطر قرونا، وسأرى ضباب البحر. سأتحسس شاشة الكمبيوتر الباردة، وسأشمّ رائحة عرق جدي وحكايته من بين الزجاج والضوء. سأصاب بانكسار غريب، وشعور بالرغبة في النوم للنسيان. عين حوض التي ورثت اسمها منذ قرون طويلة تصبح الآن قرية للفنانين، للمرة الأولى تنتصر اللوحة على الشجرة، ويصادر الطارئ الأصل، وسيسمونها «عين هود».

سيقترب مني بشارة عندما يشرح لي عن شارع الاستقلال، ومقبرة الاستقلال، ومسجد الاستقلال الذي هو مسجد الشيخ عز الدين القسام، وهو المسجد الذي صلى فيه جدي طفلا خلف القسام أيام العيد. سيقترب بشارة ويهبط من فوق رأسي، أصبح اسمه «شارع العتصمئوت»، التي تعني الاستقلال بالعبرية. سأقول له: «هل تصنع الأسماء الجديدة الحالات القديمة، منذ بابل حتى الآن وهم يسرقون الأسماء بعد الأمكنة وقبلها، لكن الحلم والذكريات التي تعجن المكان وتشكله لا تورث يا بشارة، أليس كذلك»؟ سيردّ عليّ بشارة مغنيا بصوت ضعيف: «الأرض بتتكلم عربي الأرض الأرض الأرض».

آه من تلك الليلة التي جاءت فيها «ربيكا». سأعترف لها بالحبّ، ستعترف لي، ستفرح وتقفز، ستغني لي بالعربية: «شايف البحر شو كبير. كبر البحر بحبك».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ستدعوني إلى العشاء في منزلها. صورة كبيرة لشكسبير على الجدار، وصورة أخرى لجبران. ستتناقش في مفهوم النبي والابن. كنت قد عدت من يوم عمل طويل مع خالي، ستطلب مني أن آخذ حماما ساخنا، سأدخل الحمام، سأنظر إلى نفسي، إلى صدري وشعر صدري الذي وصله الشيب، ربما لاحظت أكثر من أي وقت مضى أن لوني أسمر، وأنني خجلت فعلا عندما نظرت إلى عضوي، شعور غريب عصف بي، ربما إنها المرة الأولى التي شعرت فيها أن الوحيد أصبح رجلا. سأخرج من الحمام، ستلاقيني بملابس داخلية جديدة، وقميص لونه أسود، ستقول لي: «سنسمع عبد الوهاب «يا جارة الوادي»، ستعيد: «إنها الأغنية التي حضنتك على ألحانها للمرة الأولى». ستضع بعض المكسرات، وسترتب لي خلطة من الشراب، حدثني عن بيت لحم وكنيسة المهد، سأقول لها: إن أنفاس الرب تحوم في المكان، آثار أنفاسه وأقدامه يفوح بهما الصخر والنحاس. لو وضعت يدك على النحاس والصخر في ظل الكنيسة الرطب المشبع بالبخور، سينتابك شعور بالارتجاف والخوف، سترتمين في أحضان الله، وسيمسح دمعك ويغسلك ويعيدك طفلة. عند المساء في بيت لحم ستشعرين بأن جفن الرب يحنو على الخلق مطبقا، وأن أنّات المسيح وقطرات دمه في شارع الموت ستسقط مثل قطع ثلج عملاقة تغسل الأرض وتنظفها كالبرد، وأن الحلم سيخترق الأفق مبشرا بالألم وخلوده واستمرار التضحية، هذه هي بيت لحم والقدس وحيفا ونابلس.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ستسرح وتميل برأسها إلى كتفي. كانت ترتدي «روبا» ذهبيا، أطرافه سوداء مزركشة، سرحت شعرها كما أحب، أبرزت إحدى أذينها، ووضعت قليلا من الكحل في عينيها وهي عادة جديدة، قالت: «أتريدني أميرة عربية»؟ لم أجب. وقفت، وأمسكت بيدي، وسارت بي نحو غرفة النوم، كانت الإضاءة خافتة بلون فضي، كان لون الغرفة أحمر باهتا، مشيت معها، وضعت يدها على كتفي، كانت الغرفة معطرة بالياسمين، وموسيقى خفيفة تنبعث من الكمبيوتر. أغلقت خلفنا الباب، وسبقتني، كانت عند رأس السرير وأنا أمام الباب، أُخفت النور إلى ما قبل الانطفاء. وقفت أمامي، واقتربت نحوي خطوة خطوة، وضعت يدها على خدي، مالت برأسها نحوي، فسقط رداؤها، انتصبت أمامي مثل تمثال، ظهرت ملابسها الداخلية، لمع نور خفيف حول خصرها، وانسل النور بين ركبتيها، وكشف عن باطن ثدييها الخارجي، ولمع عنقها الطويل، تسمّرت في مكاني، حاولت جذبي، حضنتني، قبلت شفتي، مررت أصابعها فوق صدري، بقيت واقفا، حاولت مرة أخرى، لم أتحرك، ارتدّت إلى الوراء، ولبست ثوبها، خرجت من الغرفة وقد خنقت دموعها:

- ألا تحبني؟

- بلى أحبك.

- لماذا؟

telegram @ktabpdf

وضعت يدي على شفتيها وقلت: «كانت روح والدي وكلمات جدي تملأ الغرفة».

في تلك الليلة سأنام على فراش أبيض وثير، وسيطير حولي الحمام، وسأسمع خرير المياه ووشوشة العصافير، وسيعود الوحي أو الهاتف إلي بجناحين أبيضين قائلا: «لقد أورثناك علم الغيب، والقدرة على رؤية الأحداث قبل وقوعها جزاء بما صبرت، كرامة جديدة لكراماتك وآلامك». سيحملني طائر كبير، وسيعود بي إلى سريري، سأصحو فزعا، وسأشمّ رائحة الطائر على ملابسي، وسأتحسس مكان مخالبه، وأثار ريشه الأبيض الناعم الذي تطاير من أسفل حوصلته الضخمة. سأصحو باكرا، وسأعلم بأن هاتفي سيحمل أخبارا سيئة تخص جدي، سأعلم بأنني لن أخرج ولن أذهب إلى العمل، سيتصل خالي:

- لقد تأخرت!

- لن آتي للعمل اليوم.

- هل أنت مريض؟

- متعب قليلا.

- بحاجة إلى أي شيء؟

- تسلم يا خال.

سأذهب إلى النهر، إلى اختلاط الشمس والرطوبة والظل، سأنتظر، سيرن الهاتف، ستقول أمي: «جدك تعب فجأة،

telegram @ktabpdf

وطلب أن يراك». ستخنق دموعها. سأعاود أنا الاتصال دون رد، سأطلب بشارة، سيأتي حالا، سيكون حزينا، سيحاول طمأنتي: «إن شاء الله الموضوع بسيط».

دون أي تفكير، سأجهز أوراقي بسرعة. سأصحو باكرا دون وداع، سأترك ليلى و«ربيكا» نائمتين، سأترك رسالة قصيرة تعتذر عما بدر مني بعد نقاش طويل.

الآن تنشف جروحي، وأسمع القهقهات وبعض الكلمات العبرية عن إسرائيل. تحس بجوارك قبور أجدادك الثلاثة، والبيت الذي ولد فيه أبوك، تفكر كيف استبدل اسم يعقوب الذي تبع أخاه عيسو عند الولادة؟ وكيف أعقب عيسو وأمسك بعقبه؟ وكيف تغير اسمه إلى إسرائيل «يسرا»؟ بمعنى المناضل أو المصارع مع الله، وسيكون «إيل» وهي الرب، فتصبح إسرائيل الدولة النبي الذي صارع الله أو صرعه. ومنذ ذلك اليوم سأسمع هذا الكلام، وسأعلم أن (الدولة) النبي ستقيم قرية للفنانين في بلد أهلي: فنانون يرثون الحكاية والجمال، يعلمون الناس الإنسانية والمحبة والوفاء. مرة أخرى يطرق الجندي الباب الحديدي بضع طرقات، ويصرخ: «عربي قذر قاتل».

في المستشفى، في مستشفى الاتحاد الهاجع في بطن جبل «عيبال»، سأتقدم بخطاي، سيدقّ قلبي، سأعد الأبواب، وسأقرأ على عجل أسماء الشهداء، والنعي والشعارات على الجدران، سأعد الغرف. سنوات طوال لم تلتق جدك، ما الذي حدث؟

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

سأنظر عند الباب الخامس من الممرّ، هناك وقفت أمي، سأهرول نحوها، قلبي يخفق ويرتفع، أنفاسي تتسارع، رجلاي ترتجفان، أحضن والدتي، تترك باب الغرفة، تتجه نحو الممر.

عند الباب، أنظر أمامي، جدّي سليمان الصالح الذي كنت أعتقد أنه لا يكبر ولا يشيخ ولا يمرض ممدّد على سرير أبيض، ترتفع قدماه من تحت غطاء أخضر فاتح اللون إلى جانبيه، تمتد يداه وأصابعه السمراء الغليظة، يرتفع من أعلى كفه أنبوب معلق في كيس بلاستيكي أبيض شفاف، يكاد صدره يرتفع ببضع أنفاس، سبع أو ثمان خطوات سأكون فوق رأسه، سأمد يدي نحو كفه وأحضنها: «سيدي، جيت يا سيدي»؟!

سيقول الكلمات الثلاث، وسيغمض عينيه وتتسارع أنفاسه. سأكظم أنا شهقة هستيرية من البكاء والصراخ، سأنظر إلى عينيه، فإذا بالدمع يسحّ من بين مآقيه إلى جفنيه متدحرجا نحو خديه، وأنفاسه الآن تتهدج في أذني.

يتصل بي بشارة، أخبره بما حدث، سيرد: «أقل من ساعتين سأكون عندك في نابلس». إنه في حيفا، غادر قبلي ببضعة أيام ليستريح في الناصرة، بعد أقل من ساعتين سيقابلني عند باب المشفى، سيقول قبل أن يصلني: «أجريت عشرات العمليات في هذا المشفى». يقترب نحوي، يسلم، ينظر في عيني، سأسبق النظرة باحتضانه: «إنه يحتضر يا بشارة». سأقول هذه العبارة، وأزيح بوجهي نحو سور المشفى، أسمع صوته المختنق، سيقول: «سأذهب لأراه وأعود».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يعود حزينا، ويخبرني بأن وضعه صعب، وأنه غير راضٍ عن مستوى علاجه في المشفى. سيطلب مني كل الأوراق اللازمة لي ولجدي من أجل إصدار تصريح لدخول (إسرائيل) إلى مشفى حيفا، وهناك سيشرف عليه. سأرفض بداية، سيرد بشكل صارم: «الأطباء الفلسطينيون هم من سيرعونه».

خلال أقلّ من يومين سأمسك بالتصريح الصادر هنا في نابلس بشكل مستعجل، والموقع عليه من قبل ضابط إسرائيلي باسم (رامي). مدة التصريح أربعة عشر يوما، ومشروطة بالبقاء في المشفى.

سأعلم في تلك الليلة أنني سأحلم حلما، سأنام، وسيكون الحلم رؤية شارع الاستقلال الممتدّ نحو البحر، سأرى على جانبه الأيسر ووجهي نحو البحر مسجد الاستقلال. سترن في أذني تكبيرات العيد وهمسات الصغار إلى جانب المسجد، سأرى مقبرة الاستقلال، وتلك الحجارة القديمة المحطمة والمليئة بالأوساخ وزجاجات العرق الفارغة. ستبقى الحجارة كما هي متروكة منذ الميت الأخير في شهر تموز من عام 1948، سترى الشواهد والبنايات الزجاجية الجديدة والسيارات، سيكون جسد جدي ممدّدا، رأسه عند شاطئ البحر، ورجلاه تتجاوزان بوابة المسجد، سيمرّ المارون من فوق جسده، نساء يهوديات أنيقات وبعض الأطفال، وكثير من الشباب بملابس السباحة يهرولون نحو البحر، وجسد جدي الطري يستجيب لخطوتهم

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

دون ألم. كانت ذراعاه ورجلاه بطول شارع الاستقلال الذي أصبح «العتصمئوت»، وسيراقبه الموتى الهاجعون من تحت تراب مقبرة الاستقلال بشفقة غريبة دون أن يقوموا بأية حركة.

سيتحدث بشارة الإنجليزية والعربية مع أطباء جاؤوا حول رأس جدي، سأفهم أنه يعاني من تعطل وهزال في عضلة القلب، والتهاب حاد في الرئة ناجم عن خطأ في علاجه في نابلس. سأنظر من المشفى نحو البحر، وسأحاول الصراخ: «اصح يا جدي وقم، أنت الآن على بعد مرمى نظرة من حيفا ومسجد القسام، انظر إلى بطن الكرمل، ربما تكون هناك عين حوض». سأشمّ رائحة البحر للمرة الأولى، سيجتمع جدي وحيفا والبحر والحكايات في مكان واحد. تتصاعد أنفاس جدي بصعوبة، ينظر إليّ نظرة خرساء تتفجر باللوم والحب والحزن. جدي سليمان الصالح الذي لا يموت واقفا مثل سليمان النبي، بل يموت ممدّدا عاجزا. آه يا جدي سليمان، أريد فقط أن تصحو لأضمك وأشمّ رائحة عرقك فقط. جدي سليمان أنا هنا، وأنت هنا، انظر إلى البحر، ربما ستعثر على بعض خطواتك وأنفاسك.

يكون بشارة إلى جانبي بلباسه الأبيض، نتحدث صمتا عن جدي وعن حيفا. يقترب مني ويضغط على يدي، فجأة تتسارع أنفاس جدي بشكل غريب، تجحظ عيناه، يرفع يده، ويمدّ ببصره نحوي، تتجمد نظرته، وتسقط يده مرتطمة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بالسرير. سيتقدم بشارة مثل المجنون، سيعطي أمرا للأطباء بالتجمع. سيموت جدي تلك الليلة من نهايات الربيع. سيقترب مني بشارة صارخا: «مات سيدك وسيدي في حيفا»!

قبل لفّ جدي بالكفن، سألبسه الجاكيت والكوفية والحذاء، وبعد أن يوضع في سيارة الإسعاف لنقله إلى نابلس، سيتبعني بشارة بسيارته، في الطريق وسيطلب من سائق الإسعاف العودة.

سأجلس في الكرسي الخلفي وقد جفّ حلقي، وكانت عيناي كأنهما ممرّغتان بالملح، سيتمتم بشارة باسم الرب، وسأرى الدمع في عينيه من المرآة المثبتة وسط الزجاج الأمامي للسيارة من بين الضوء والظلام.

- ماذا الآن؟

- ستمر بي من شارع الاستقلال، ليرى الحاج سليمان الصالح شارع الاستقلال، وستقف بنا عند باب المسجد ليلقي التحية على المصلين، وليقرأ الفاتحة على أرواح أبناء عشيرته المدفونين في المقبرة، وسيدعو للشيخ عز الدين القسام.

سأصاب بحالة هستيرية هنا، سيعلو صوتي بالبكاء وسأبلع الكلمات، وسيعلو صوت بشارة باسم الرب والقداسة والمحبة، سيقترب بشارة، سترتجف شفتاه، يطلب أن ننزع الكوفية عن رأسه حتى لا يثير الانتباه، سأصرخ في وجهه:

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

سيكون سليمان الصالح كاملا سويا، سيكون كما هو في الحياة هو في الموت، إن كنت خائفا أعطني السيارة، وبلّغ بأنها سرقت.

سيسير بشارة دون أن يعلق على كلامي، سأمسك بكتفي ابن البلاد سليمان الصالح، ستلمع ملابسه، وسأشمّ رائحة معطفه للمرة الأخيرة، سأشمّ رائحة المستشفى والأدوية على جسده، سيعيش سليمان الصالح دون عصا، وسيلمع النور على شفتيه السوداوين، وستلمع عيناه تحت جفنيه. وسيقود بشارة السيارة بنا، وسيصعد في الطريق إلى عين حوض. الليل وبعض الغيوم الخفيفة تحجب القمر. ستلمع أشجار الصنوبر والخروب، ستصعد السيارة، وسيصعد الشيخ سليمان الصالح بردائه وكوفيته، سيترنح رأسه، وسأصرخ عليه: «اصح يا شيخ سليمان»!

ستخترق السيارة غابة الزهور والسرو والصنوبر، وسأشمّ عين حوض للمرة الأولى دون صور، أريد برقا أو نورا يا ربّ لأرى أوراق الشجر والتربة والحجارة القديمة وحتى القبور. أرى البحر أخيرا من علٍ، إنه يتجرد من ثوبه الأرضي، يتعرى أمامي، أحسه ساخنا وادعا. عند المدخل المقوس بالأشجار والأزهار والحشائش الطويلة المتمايلة لافتة مكتوب عليها بالعبرية والعربية (عين هود). سأحضن جدي من جهة الجنب أكثر، وسأقول له: «يا سيدي، إنها عين حوض، نحن الآن على المدخل، هل تغير؟ هنا أول منزل في البلد، عند التقاء السهل بالجبل، إنها مئذنة المسجد، إلى يمينك البحر الذي تحبه، ألا تريد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أن تصلي الفجر؟» سيلفّ بنا بشارة، للمرة الأولى أعيش الحكاية التي سمعتها وأشمها وألمسها. سأبكي أكثر، بكاء المحروم من كل هذا الجمال والسحر. ضباب خفيف بين الوديان وبطن الجبل، وبعض العصافير التي صحت مع البرد، سأغني لسليمان الصالح: «عاريسنا زين الشباب.» و «يا ظريف الطول»!

وجه سليمان الصالح يزداد اصفرارا وزرقة، ويصبح باردا أكثر، سأحضن كتفي جدي وأنا جالس إلى جانبه، والصليب المعلق تحت المرآة في سيارة بشارة يترنح، والنور ينعكس على تناقض بين الشخوص ولإغماض السابق أمسك بيد جدي، إنها تبرد، سأقول لبشارة: «اذهب ناحية المسجد». السيارة تعلو أكثر، ينكشف البحر من تحت غيمات داكنات وضباب، وتحوم العصافير في الهوة بين حافة الكرمل وخد البحر.

سليمان الصالح يخطو خطواته بعد أكثر من سبعين عاما. سأقول له بعد أن أفتح الشباك: «انظر يا سليمان، تكلم يا مرحوم، نحن الآن عند زاوية المسجد الذي حملت إليه الطعام للأهالي عندما أنجز بناءه سيدي صالح، وثبت الشاهد على الباب المقوس». البيوت نفسها، كثير من التماثيل واللافتات بالعبرية. سأقول لبشارة: «ترجم». سأعرف معنى عقوبة الحرمان من اللغة ونسيانها في الأساطير، لن يستطيع بشارة الكلام، وسيذكر اسم الرب دائما. «إنه شجر الخروب يا

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

سيدي. دلني على بيتنا يا رجل». لقد بدأ سليمان الصالح بالتصلب والبرودة أكثر، يبدأ فكه السفلي بالارتخاء. رهبة ستجتاحني، سأحس بالملائكة والشياطين يخرجون من بين شجر الخروب. أيادٍ كثيرة تظلل المكان، تمتمات وهمسات تنبعث من البرزخ، الريح تحرك أوراق الخروب وترن أجراسه وتحتك. أحس بالأرض تنشق، يخرج الموتى يتكلمون العربية، ويذهبون لصلاة الفجر. البرد يخترق عظامي وارتجف، أحصر بولي حتى أن مثانتي تكاد تنفجر، وبشارة صامت. سأرى السروات الأربع، كبيرات يحجبن الأفق، سأقترب أكثر، الدرجات الآن أمامي، لم يتغير شيء، إنني أغرق في الرواية يا جدي، أغرق، درجاتك السبع أمامي، السور فقط مضاء بأضواء ملونة، عليه شعارات باللغة العبرية، الباب المقوس أمامي، أي حجر رفعت يا سيدي؟ أين الشاهد؟!

يطلب بشارة أن لا نقترب أكثر، فالوقت حرج، والظروف لا تساعد على الاقتراب. أطلب منه الاقتراب أكثر، يقترب حتى أستطيع رؤية مدخل البيت والشاهد. أمسك برأس جدي، وأعدّله باتجاه الشاهد، لكن الشاهد غير موجود، لقد ثبت مكانه شاهد جديد مكتوب عليه بالعبرية، لم أفهم سوى 1954.

بشارة غير قادر على الكلام، ستلمع عينا جدي في ذهني، ستصبحان شاخصتين أكثر، وسأشمّ رائحة الموت من فمه. يستمر بشارة في المسير، أنا في منطقة وسطى بين الحياة والموت.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أشمّ بقايا رائحة عرق الحياة في جدي، وأشمّ طعم الموت المنبعث من برودة جسده، ورائحة الأدوية. «أنت وأنا وأمي متنا ثمنا لتأريخ الله، وثمنا لهلوسة متحجرة لما رأى حام عورة والده نوح جدّهم الطاهر! سأطلب من بشارة المسير إلى نابلس: «سنعود يوما يكون فيه نهار».

جدي مسجى إلى جانب قبر والدي، موضوعا على حمالة سوداء، للمرة الأخيرة تحت الشمس والضوء. قبر عميق يفصل جدي عن والدي بمقدار أصابع اليد من التراب، يوضع جدي على حافة القبر، يحملونه، نظرات غريبة نحوي! يترنح بين أيديهم، ستدفن رائحة عرقك يا شيخ سليمان، سيبقى الحصان وحيدا، وعصافير عين حوض وبحرها ستبتعد عن العودة إلى أصلها أكثر. سينكشف الكفن عن وجهك يا سيدي، ستلمّ الحكايات والأحاديث نفسها وتدفن إلى جانبك.

مع البلاطة الأخيرة التي غطته سيبزغ وجهه، وستنتشر رائحته في عين حوض. يقولون إن الإنسان عندما يموت تعود روحه إلى أصلها، سيظهر وجه جدي في عين حوض، وسيعود للعبور في شارع الاستقلال، ومنه إلى أشجار الخروب ومسجد عين حوض، وتلك الطرق المتعرجة والمترامية بين البساتين المظللة بفروع الصنوبر والسرو والعنب و«قرون» الخروب. وسأذهب عائدا للسلام عليه، والالتقاء به عند أصل اللقاء الأول، والمضاجعة الأولى التي أنجبت والدي، والداية سعدية التي قتلت مصلوبة على أنقاض منزلها.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بعد انتهاء العزاء، سيصطحبني بشارة صباحا إلى حيفا، وإلى عين حوض. ستظهر حيفا أمامي بشوارعها، وسأخترق شارع الاستقلال وصولا إلى البحر، سأتابع خطوات جدي محمود ودكانه في شارع الاستقلال. سيقول بشارة: «إن قسمًا من المحلات القديمة هدم وبنيت مكانه عمارات جديدة». لم أر كل ذلك، سأبحث عن الحجارة والحشائش. حافظت مقبرة الاستقلال على أصلها، وكذلك المسجد والسور المحاذي. سأنظر إلى السور الرمادي والأسود، سأرى ظهور آلاف الصبية والشيوخ التي استندت إليه أيام العيد. أحدق في فندق قديم، يخبرني بشارة أنه أقيم عام 1948، وإلى مشفى كان يسمى «الشفاء»، يضرب جداره الغربي موج البحر. سنصعد الكرمل إلى عين حوض.

سأعود إلى المنزل، وستفوح رائحة جدي، وسأسمع همهماته ودعواته هناك، وسأرسم ملامح قبر والدي، وسأحس بأن له قبرا ثالثا ما زال شاغرا في عين حوض، هناك بين أشجار السرو العالية. سأقف مرة أخرى إلى جانب منزل جدي، سأقترب من السور، وبشارة إلى جانبي، سيخبرني بأنه يفكر بالاستئذان من صاحب المنزل الجديد، الذي من المفترض أن يكون فنانا، كما أعيد تسمية القرية مند عام 1954، باسم (قرية الفنانين). سيدق بشارة الباب، سيخرج رجل سمين أصلع، لحيته طويلة، يلبس بلوزة بيضاء ضيقة تكشف عن جرف سرته الهائل. كان يلهث وقد تعرق، يفتح الباب الخارجي من جهة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

السور، يتحدث معه بشارة بالعبرية، هنا شعرت بالهزيمة والعقاب، وأنا أشعر بأن بشارة يخبره بأن حفيد صاحب المنزل الأصلي جاء في زيارة من غربة طويلة، وأن جدّه مات، وأنه يرغب في رؤية مسقط رأسه وطفولته.

كنت أرقب ساحة المنزل، والدرج والسروات والحجارة، وسأرى آثار المقبرة عند زاوية بعيدة من الناحية الغربية وقد تهدمت، في حين نصبت بعض المراجيح وألعاب الأطفال في القسم المتبقي. سأرى شجرة الخروب أم الشروش.

في قمة سرحاني، سيصرخ صاحب البيت الجديد بالرفض، وبأنه لا يحب زيارة الغرباء. سأندفع وأتحدث معه بالإنجليزية حول ما هو الفن الذي يدرسه ويُدرّسه هنا؟! ومن هو صاحب المنزل والغريب؟! سأسأله عن الشاهد. سيجيب بصراخ أنه لا يعرف، وأنه وضع ما هو من تصميمه مند جاء إلى هنا. سأقول له، بينما يحاول بشارة تهدئتي: «إن تغيير الشاهد لا يوّرث ذكرياته وأحلامه، وإن الشجرة هي التي تصنع اللوحة، وأن شجرة الخروب أم الشروش تعرف من زرعها، وهي لا تهب عذريتها إلا لمن تحب». سيستشيط الفنان السمين غضبا، وسيطردنا مهدّدًا باستدعاء الشرطة والدخول لاستحضار سلاحه. سأقول لبشارة: ألم أقل لك؟ الطارئ يعلم الناس لعبة الأصل، ويرث الحنين يا بشارة، إنه يعيد صناعة العجل الذهبي ليعرف الله، إنها (دولة) النبي التي يشتغل فنانوها بالسرقة، لكن البقرة تعرف قاتلها دون معجزة.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

سيقوم بشارة بتهدئتي وأنا أرتجف، سيأخذني إلى بار قرية الفنانين، المسجد الذي شهد وليمة تثبيت الشاهد وقت بناء البيت. الأشجار كبرت، والسور يضيع بين أوراق الورود والأزهار. الساحة مرممة وملمعة، وصور المشروبات والوجبات معلقة على جدار المسجد، ولوحة لامرأة عارية من نصفها الأعلى، لها نهدان مدببان، معلقة على باب المسجد (المطعم) من ناحية اليسار. سأصاب بالدوار، سأصرخ في وجه بشارة: «أشعر بأنهم يأكلون لحم جدي، ويشربون دم والدي. لا أستطيع تحمل هذه المفارقات المذهلة والمؤلمة».

سألت النادلة ماذا نريد أن نشرب. يطلب بشارة كأسين من النبيذ المصنوع في حيفا، ويقول: «سنشرب نبيذا إسرائيليا! قلت له: إذا كتب عليه بالعبرية يصبح إسرائيليا؟ الأرض أرضنا، والعنب عنبنا، والعمال عمالنا. مع كل رشفة بدأت أتذوق طعم وليمة جدي. سأشمّ رائحة اللبن والخبز واللحم، وسأبحث عن المكان الذي حمل جدي عنده الإبريق ليغسل أهالي عين حوض أيديهم وسط الدعوات والتبريكات. سأصاب بدوار وغثيان، وسأتذكر روايات التوراة عن بنات لوط اللواتي اغتصبن والدهن، وعن صراع يعقوب مع الله الذي اكتسب اسما جديد هو (إسرائيل)، لتعطى له أرض كنعان. أشمّ رائحة الحرق والدم، وأرى «يوشع بن نون» في لوحات (فناني عين حوض)، (دولة النبي) (إسرائيل) التي يصبح فيها (يوشع فنانا).

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

سأذهب إلى الحمامات. بعض السكرانين والسكرانات يترنحون على المدخل. أشمّ رائحة البول. مع إغلاق الباب أبدأ بالاستفراغ، سأصاب بدوار، وسترتطم ركبتاي بالأرض، أحمي وجهي بيدي الغارقتين بالبول ورائحة الاستفراغ المعجونة برائحة النبيذ. تنتابني مع وقوفي نوبة جديدة من الاستفراغ، تنزلق رجلاي وركبتاي من الخلف، يرتطم وجهي بالوحل والبول والأرجل، وستعجن يداي كل ذلك، سيدفعني ذلك إلى الاستفراغ والقرف أكثر، حتى شعرت بأن معدتي وصلت حلقي. سينظر إليّ الزبائن السكارى بقرف، السائل اللزج يتساقط من لحيتي، ويشكل شبكة بين أصابعي، ولعابي يسيل بشكل لزج، رائحة منتنة تنطلق من فمي ومن تحت رجلي. يغطي السائل اللزج ساعتي، وأبدأ نوبة من الصراخ.

أجر نفسي إلى حمام آخر لأغسل ما لحق بي من ويلات وقرف، الحمام مبنيّ من حجارة قديمة، أتأمل الحجارة التي تعود إلى بيوت أهالي عين حوض، أو إلى سور المسجد، أنظر تحت قدمي، قريبا من المقعد المخصص للتغوط إلى جانبه من ناحية اليمين بمحاذاة الحائط حجر مثبت بشكل طولي، أغسل يدي، أمسح الكتابة الناتئة على سطح الحجر، أحاول قراءتها: «منزل صالح المحمود بني عام 1922»!

إنه شاهد منزل جدي، أحسست بأن لحية سليمان الصالح تتمرّغ بالبول والبراز، وهو يستصرخني لانتشاله، يده

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

تلوح لي. سليمان الصالح يعيش في حمام الفنانين المهاجرين! أبدأ بالعويل، سأنزع شباك الحمام، وأحطم الحجارة المحيطة بشاهد منزل جدي، أضرب الحجارة بعنف، سيتطاير شرر من حديد الشباك، فجأة ينفتح الباب خلفي، يحملني رجلا شرطة يرتديان اللون الأزرق، سأصرخ في وجهيهما: «أريد الحجر فقط». سيلكمني أحدهم على وجهي لكمة شديدة، سأثور أكثر بقوة أضعاف قوتي، سأعود إلى الشاهد، ينتزع أحدهم مسدسه ويصوبه نحوي، سأحمل حديد الشباك وأضرب الشرطي على يده، أحسست بأنها طُحنت مع المسدس، سأحمل زاوية الشباك، وأهوي بها على رأس الشرطي، سيقذف جرح غائر في رأس الشرطي ووجهه الدم نحو وجهي، وسأصرخ: «أريد الشاهد ولا أريد قتل أحد».

سيقع الشرطي إلى جانبي، والدم يسيل من جرحه الغائر المفتوح، وقد ظهرت من بين الدم عظام جمجمته، ووجهه سيرتعش كالذبيحة، وسأصرخ: «أريد الشاهد».

سيهاجمني رجال الشرطة بالهروات، وسيرتطم رأسي بجدار الحمام، وسأرى وجه بشارة مشدوها مرعوبا، وقبل أن تكسر هراوة أسناني وأغرق بالدم أصرخ: «اكتب حكايتي يا بشارة». سيرتطم فكاي، وسأغيب عن الوعي.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

من هوس الروايات إلى هوس الحالات؛ الطبيب يعيد صياغة المؤرخ!

كيف للطبيب أن يعيد صياغة المؤرخ؟ الطبيب الذي يعايش الحالات، لا يمكن له التسليم بالاحتمالات والروايات. الطبيب الذي فزع على صوت معركة عنيفة متشابكة، فيها الرصاص وصوت الحديد، وفيها اختلاط العربية بالعبرية.

للتو كان الوحيد قد غادر وتركني في المطعم الذي كان مسجدا، دقائق قليلة، أرى بركة من الدم، أرى الوحيد عند زاوية الحمام يصرخ: أريد الشاهد. بالقرب منه شرطي انتقع شعره بالدم.

أخترق الجمع محاولا الاقتراب من الوحيد، أرى عينيه قبل أن تنهال عليه الهروات والركلات، يفور فمه بالدم، وتتراخى كفه التي امتدت نحوي. منذ ليل ذلك اليوم وفي صباح اليوم التالي، لن أعود مجددا إلى سكينتي، وربما سأكتشف

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

على طريقة الطبيب إنني كنت مريضا؛ فقد كشفت هذه الدماء أعراض مرضي.

اقتادوا الوحيد إلى السجن، وفي اليوم التالي تكتب الصحف الإسرائيلية عن ذلك المؤرخ والأكاديمي الفلسطيني الخائن، الذي تنكر لتصريح الدخول الذي منحته إياه إسرائيل لمرافقة جده المريض، وأن هذا الأكاديمي الذي أقلق العالم بالإنسانية ورفض القتل وبشر بالمحبة لم يكن إلا كاذبا مهووسا بالحقد، دخل إسرائيل للقتل، وارتكب خيانة تشبه سرقة الضيف لبيت مضيفه واغتصاب زوجته. لقد أثبت الوحيد -حسب الصحف العبرية- أنه يجب على إسرائيل أن تراجع سياستها في حسن النوايا تجاه الفلسطينيين، فهذا المؤرخ مريض بالكراهية، واختلق الروايات ليبرر دمويته.

لقد تم استدعائي أنا (الإسرائيلي) الدكتور بشارة، لأثبت أنني لم أكن شريكا ومتآمرا، ولأعلن براءتي من وحشية هذا الفلسطيني الصديق الذي استغلني واستغل صداقتي، وعاد قاتلا بعد أن استقبلته إسرائيل وجده مريضا.

أما أنا فأعلن على طريقة التقرير الطبي أن هذه الرواية مقنعة، وسأقول للوحيد قبل غيبوبته وغرقه بالدم، بأنني سأكتب حالته. قالها: «اكتب حكايتي». وأنا أقول حالته، أعرف أنا الطبيب معنى الحالة التي ترفض الاحتمالات إلا على سبيل

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الفحص، وأعرف الفرق بين المختبر والأحلام. ولأنني طبيب سأكتب الوحيد حالة وليس رواية، فأنا نفسي أصبحت حالة جديدة بعد رواياته، وقد أصابتني لعنة الحالات بديلا عن الروايات.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بداية التفاعل

كان الوحيد حالة تنتج حالات أخرى، يمزق السكينة ويمنحها أيضا، وأنا الآن أكتب الوحيد دون احتمالات وهوس الروايات. هنا رواية وحيدة لا يوجد فيها تلقيح رباني أو صناعي، إنها حالة طبيعية، لكنها أيضا تكشف حالات موت الملقح بعد الحمل؟ وماذا يضر أو يفيد موت الملقح بعد الحمل، ملقح وحيد ينجب ملايين الروايات، على رأي الوحيد!

إسرائيل ستعلن أنها ربما تقدم على تنفيذ حكم الإعدام بحق الوحيد، وستتنازل عن إنسانيتها (استثنائيا)؛ لأن الجريمة استثنائية. وفي كل يوم من أيام المحكمة والظهور العلني للوحيد سيطلب مني الحضور بصفتي شاهدا. وسأعمل على اكتساب الوقت وأكتب حالة الوحيد وحالتي في سباق مع الزمن من أجل توثيق عملية خسارتي للسكينة التي كانت دماء الوحيد ذروتها وليست بدايتها. أكتب مختفيا وشاهدا ومواطنا (إسرائيليا) ومسيحيا محبا. كل ذلك سيتجمع صامتا ولا أدري

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

متى ينفجر؟ وربما لا أدري لماذا كتب علي وراثة كل هذه الفواجع؟ وللمرة الأولى سأعايش الأمراض التي تنتج عن التاريخ، وعن العلاقة بين تلقيح الجنين في رحم امرأة وتلقيح الأسطورة من روايات الرب في عقول البشر، إذ كيف للأسطورة أن تصبح عرقا؟!

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

مقدمة لتقرير طبي

وأنا أكتب هذه العبارات تظل كلمات الوحيد تجتاحني منذ اللحظة الأولى التي تعرفت فيها إليه في مسرح عريق عند زاوية تحدها غابة، كان الوحيد يقضي فيها وقتا طويلا، سمعت صراخا بالعربية تعليقا على مشهد موت الممثل على المسرح، كنت أفكر وأنا حزين، هل كان الموت سكتة قلبية أم دماغية؟ أو ربما انفجار في الشرايين؟

الوحيد هذا الفلسطيني مثلي، أو ربما أنا مثله، الطويل الوادع، ذو النظرة العميقة الهادئة، قليل الكلام عميق التأثير مثل الحقنة. ستظل كلماته ترعشني: «يا بشارة، وصلت كل هذا العمر وأنا أحلم بأن أعود إلى البيت مساء واجد والدي، هل تصدق؟ طيلة هذه السنوات يستعيد الوحيد على مسامعي اللحظات الأولى لنبش التراب عن قبر والده، وكيف هرب مرارا ليسترق النظر متخيلا أن والده سيقوم من التراب وينفض الغبار عن قميصه وبنطاله وكتبه، وسيسأل عنه، ويهرول نحوه

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ليحتضنه؟ تحمر عينا الوحيد ويتنهد: لكنهم انتشلوه منكمشا نحيلا، سقط حذاؤه بعد أن أصبح واسعا على قدميه اللتين تآكل لحمهما. حملوه مسرعين، وسرقت أنا النظرة الأخيرة إلى كفه التي تحولت إلى عظام مغطاة بجلد أسود، حاولت التقدم لالتقاطها، لكن جدي نادى علي، حملني وضمني إلى حضنه، وهمس: «تعال يا سيدي».مكتبة الرمحي أحمد

منذ تلك اللحظة أردد عبارته: إن الثغور التي يحفرها الحزن والألم في النفس لا تعود للامتلاء عند زوال أسباب هذا الحزن ونعود للفرح. ظل يتحدث عن جده وعين حوض، وعن البيت والسور الحجري وشجرة الخروب وجامعة النجاح التي هجرها قبل تخرجه بوقت قصير، والبيت الجديد على سفوح نابلس باتجاه الساحل والبحر. سيظل ذلك الحوار الساخن في ليلة باردة يعود إلى ذاكرتي في تعليق على الموت الذي انتشر في نابلس وحيفا والقدس وجنين، وعمليات الاغتيال الإسرائيلية بالصواريخ والطائرات، وعمليات الشباب الفلسطيني، وحصار ياسر عرفات، واتفاقية أوسلو. سيظل ذلك الحوار يصرخ بوجهي:

«أنتم يا أخي أكثر رقيا منا، تعيشون في بيوت جميلة، وتتحدثون العبرية».

فأرد عليه: «إيماني بالمحبة يجعلني أسامحك وأعود إليك، لنكتشف أنفسنا هنا».

رد علي مرتعشا: «عن أية محبة! وبأي رواية عن الرب ضحكوا عليك»؟

منذ تلك اللحظة، أصبت بحالة الحمى الأولى لدخول فيروس جديد إلى نفسي صادر حالة التوازن والتصالح مع النفس التي تربيت عليها طيلة سني عمري، ولم تعد عبارات المحبة والأب والابن تفرض السكينة علي، لقد أصابتني لعنة الوحيد كما أصابت «ريبكا» صديقتنا، وزوجته لاحقا.

لقد حدق بي ماسكا كتفي بكلتا يديه قائلا:

«إن سؤال العدالة أهم من سؤال المحبة يا بشارة. فاسأل نفسك وربك عن روايته الحقيقية، فربما كان ابن الله أو خادم الله أو عبد الله! ومن يدفن أباه ليس كمن يرثيه».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بداية ظهور الأعراض

تبدأ عمليات التحقيق مع الوحيد، ويتم استدعائي بين فينة وأخرى ليذكرني المحقق اليهودي ذو الأصول البولندية بأنني مواطن إسرائيلي، وسأخسر كل امتيازاتي، وسأخون الثقة التي بناها التعايش بيننا نحن -العرب- واليهود لعشرات السنين إذا أخفيت عن التحقيق أي شيء وثبت تورطي أو تعاطفي مع الدكتور الفلسطيني الذي يدعى «الوخيد». لماذا أنا عربي وهو فلسطيني مثلا؟

في الممر في مشفى حيفا، الذي يخترق الشاطئ نحو السماء فيبدو تحته المتوسط كجسد ملتو، هذا المشفى الذي أصبح معلما من معالم حيفا (الإسرائيلية الجديدة)، يرتفع نحو خمسة وعشرين طابقا، مليئة بقصص الموت والمرض والشفاء لمواطنين فلسطينيين ويهود.

في اليوم الأول بعد عودتي للعمل، تعود رائحة سليمان الصالح ودموع الوحيد وذكريات اليوم الأخير في الطريق إلى

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

عين حوض، دخلت المصعد باتجاه الطابق العاشر حيث قسم الجراحة، ومع كل إضاءة لرقم جديد باللون الأحمر في المصعد سيدق قلبي، فأنا أعود غريبا وجديدا نحو مشفى حيفا مصابا بلعنة التحول وشبهة التآمر. أفتح الباب، أقول: صباح الخير لزملائي اليهود بالعربية، فيبتسمون ابتسامة متشابهة، ثم يردون بالعبرية: «بوكير توف بشارة». يسالون عن الأولاد وينفضون بسرعة من حولي.

وحده يتسحاق يأتي إلي مسرعا، وهو طبيب أبوه شيوعي فرنسي وأمه هولندية، كان مهذبا وطبيبا بارعا، سهر معي حول سليمان الصالح دون أن يقدم أية خدمة له، كما وعدت الوحيد، يسألني عن ماري زوجتي والأطفال. فأستشف الإرباك والحيرة في عينيه.

مشيت معه باتجاه شرفة الطابق العاشر المطلة نحو البحر. ومع نسيم البحر ستعود رائحة سليمان الصالح ورائحة شجر الخروب في عين حوض، وستحمل الأمواج وجه والدة الوحيد التي تركتها قبل أيام وحيدة في بيتها في نابلس بين قبرين: قبر سليمان الصالح وقبر والد الوحيد. يقترب مني يتسحاق، وننظر سويا إلى البحر.

- كيف الأمور بشارة؟

- بخير.

- أتمنى أن تخرج من هذه الأزمة بسلام.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

- أتمنى ذلك يتسحاق.

- هل كان لا بد أن تحضر ذلك العجوز إلى هنا بشارة؟

- تقصد سليمان الصالح؟

- نعم.

- ما رأيك أنت؟

- منذ أن جاء إلينا هو وحفيده وأنت في المشاكل.

في تلك اللحظة، أدرت وجهي نحو يتسحاق، وقلت له بالعبرية:

أنتم من جاء إلينا يتسحاق؛ تذكر بيت سليمان الصالح يبعد نحو عشرين كيلو مترا من هنا يعلم أبناءكم الفن.

هز اسحق رأسه وعاد إلى الممر. وبقيت أنا أنظر نحو البحر، وأستعيد صراخ الأطفال والعباءات والكوفيات الفلسطينية التي ركبت هذا البحر نحو المجهول والعذاب والوحل والبرد والمطر والمذابح. نعم أنتم من جاء إلينا يتسحاق.

هذه هي الأعراض الأولى للحالة الجديدة، قبل أكثر من خمسين عاما كان هذا الشارع لخالي ولجد الوحيد، والمنزل الذي يسكنه فنانون في عين حوض هو منزل سليمان الصالح بعد أن سمحت المحبة والقوة بأن تصبح عين حوض، (عين هود)، وشارع الاستقلال، شارع (العتصمؤوت) التي تعني الاستقلال بالعبرية.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

قال لي الوحيد في بلاد المحيط: «يا بشارة في مقبرة الاستقلال، حيث الشارع الوادع الذي يمشي عند قدمي جبل الكرمل، ويمد رأسه نحو البحر ويظل يمتد نحو حواري حيفا، ويدلك على وادي النسناس، في هذا الشارع كان محل جدي». ويا أيها الوحيد كان محل خالي هنا أيضا، خالي القابع الآن في الصحراء والمنفى وقد جاوز الثمانين. أعرف الآن يا وحيد لماذا يصر خالي على أن أرسل له صورة لشارع (الاستقلال) في كل مناسبة، ولمنزله الذي تسكنه (ايلا)، المنزل ذو الشباكين المقوسين الذي يضرب موج البحر جدرانه؟

الآن فقط يعود الجسم لاكتشاف أمراض العقل، ولماذا تعود الذاكرة نحو الشباب عند اقتراب الموت؟ وأعرف الآن ماذا يعني أن تدفن في ترابك؟ يعترف خالي بأن جدران البيت الحجرية المغطاة بالطين المجلوب من سفوح الكرمل تناديه، ويبوح لي بأنه دفن فيها رسائل حبه لابنة خالته التي كانت تدرس في مدارس الفرير في عكا، وعن القصائد المكتوبة بالحبر السائل الأسود، وعن نظرات الحب الأولى مع نسيم البحر ساعة الغروب، وعن رحلات سريعة إلى جبل الكرمل حيث تحول خطوات الحبيبة التراب إلى حرير. «نفسي أشوف الرسائل قبل ما أموت يا خالي، وأمشي على حصي البحر»، أن تربي ابنك في حضن الغريب، هذه هي حيفا، الآن.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

العودة المعاكسة

نعرف نحن في الطب أن الجسد إذا مرض ودخله فيروس، أو حدث تحول تعطل في عمل الأعضاء، يحدث تحول عصبي يستثير جهاز المناعة. ونعلم كذلك أن الجسد رهينة مؤجلة للحالة العصبية، وأن أي تحول عصبي سيؤدي إلى تعديل في عمل الأعضاء، ويكون التوازن بالدواء، ومن ثم الجراحة لإجراء تعديل مباشر. الآن، يستجيب جهازي العصبي للأعراض الجديدة للتأثير الذي أصاب جهاز التذكر الخاص بي.

بعد أن نزلت من المشفى، ها أنا أخترق شارع الاستقلال وقلبي يدق. على يساري المطاحن الكبرى المطلة على ميناء حيفا، هنا تخزن (إسرائيل) القمح لتطعمنا، ويطير الحمام، هذا الحمام (الإسرائيلي) الآن هو جيل متناسل ربما التقط الحب من محل جد الوحيد. وعلى اليمين مني قرب الشاطئ في حديقة في ظل جبل الكرمل ساعة انفتاحه نحو الشاطئ وقبل

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الانطلاق نحو شارع الاستقلال، كأني أرى للمرة الأولى ما كنت أراه دوما منذ أكثر من عشرين سنة؛ غواصة خضراء ضخمة يتجاوز طولها الثلاثين مترا، ترتفع في وسطها معدات عسكرية وفوهات مدافع توحي بالهيبة والخوف، أو هكذا أشعر. وعلى جوانبها تتوزع قوارب صغيرة مثلما تلتف الفراخ حول أمها. أمامها بأمتار قليلة تربض سفينة حربية بيضاء هذه المرة، إنها أكثر بشاشة، تذكر (الإسرائيليين) وأنا منهم (طبعا)، بالعناصر الأساسية للاستقلال. الغواصة وهي حرب تحت البحر تتجسس وتخترق، والسفينة الحربية وهي للحرب المكشوفة للهجوم والقتل في وضح النهار لا تختفي، والى جانبها مثل الغواصة بعض القوارب الصغيرة والمدافع المحمولة، هكذا يبدأ شارع (العتصمئوت) أي الاستقلال وقت الزمن الفلسطيني.

أتفحص كل هذا وأنظر جهة اليمين ويرتجف وقلبي وتتسارع أنفاسي: السور القديم قبل إعلان (استقلال إسرائيل)، أو الحجارة البنية الكالحة، والطين المحفور حول الحجارة. أشم الآن مرة أخرى وللمرة الأولى منذ عشرات السنين رائحة الموت على جسد سليمان الصالح، وأتفهم أمنية خالي بأن يدفن في مقبرة الاستقلال وهي مقبرة للمسلمين. أسير ببطء والشارع يعج بالحياة، لم أر أجساد الجميلات المتمايلات من بنات العم، فنحن جميعا نسل أنبياء! ولم تعد مؤخراتهن المنحوتة تستفزني، لا أراها. بدلا من ذلك أرى المحلات القديمة بأبوابها المتشابكة

المستطيلة يعلوها قوس حجري مكون من عشرة أحجار مرتبة على شكل نصف دائرة، يعلوها شباك مستطيل، وتصطف في فراغه سبعة قضبان حديدية صامتة مغلقة على حكايات خالي وجد الوحيد، أبوبها مغلقة، بعضها احتفظ ببابه الحديدي ما قبل تأسيس أو إعلان (إسرائيل).

سلسلة من المحلات المخروسة المخنوقة غصبا، لماذا أغلقوا الأبواب بالإسمنت؟ أسير كأني أخطوا على جثث وأنات وأفواه تصرخ، لكن لا يعلو صوتها. أقترب من مقبرة الاستقلال وأوقف السيارة للمرة الأولى أمام المقبرة التي مشيت بمحاذاتها طوال عشرين عاما. أقترب نحو سور المقبرة وأنظر نحو القبور التي بدت مثل هوة مرعبة؛ إذ تحيط بها العمارات البيضاء الشاهقة، والشوارع الواسعة والمقرات الحكومية.

كانت المقبرة محطمة الشواهد -الشاهد الذي كاد أن يجعل من الوحيد قاتلا- هنا مئات الشواهد وهناك في عكا الآلاف، وفي يافا مثلها وغيرها، والوحيد ليس وحيدا. حجارة سور المقبرة متهالكة ومتآكلة. أتحسس السور وتراب المقبرة في الظل، بالكاد تصل إليها أشعة الشمس جراء العمارات، كأني أسمع صوت الموتى المخنوق، وبكاءهم من الوحدة والهجران. عيونهم مغلقة بالطين تماما مثلما أغلقت أبواب المحلات والدكاكين والمنازل التي هجر أصحابها منها بالإسمنت، فيما

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

خنقت الشبابيك والأبواب بالطوب، إنهم كمن يصب الطين في فم الميت وعينيه في محاولة لحبس الذكريات.

أسمع تأوهات البيوت المخنوقة، وأتساءل للمرة الأولى عن أصحاب هذا المنزل الفخم الذي يبدو كسيرا على يمين مسجد الاستقلال، أين أصحابه الآن؟ وأين أحلام مراهقاته وألعاب أطفاله؟ ثلاث طبقات من الحجارة العمياء حزنا. أين فراشه الدافئ؟ وأين ملابس العذراوات الفلسطينيات؟ وأين صندوق أسرارهن الذي أصبح مرتعا للعاهرات الرخيصات ومستمني الليل؟ أين رواد شرفته المتمايلة نحو البحر؟ وأين سمر الجميلات ومرتدي القمباز والتطريز؟ تحت أي سقيفة في مخيم أصبحوا؟ إنه سؤال العدالة يا وحيد!

منازل كثيرة غيره في الأزقة والحواري الباردة الآن، شبابيكها وأبوابها مغلقة بالطين، بعضها كتب عليه للبيع بالعبرية. لا يريدون للشبابيك أن تتنفس ولا لأحد أن يشم دواخل البيوت الأصيلة ويتحدث مع ذكرياتها، ولا لأحد يعيد حكايا العجائز والشباب الذين كانوا يغازلون بنات الهوى في ذلك الشارع الذي عبر عن أجواء حيفا المراهقة، يريدون كل ذلك بالعبرية.

أقترب من مسجد الاستقلال، وأرقب شواهد القبور، لا شاهدا واضحا، لقد حطموها وجعلوها كومة من الحجارة.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وحده شاهد يظهر من خلال السياج المعدني تحت لافتة عبرية ضخمة (مقبرة الاستقلال). مكتوب على الشاهد: المرحوم، حسين أحمد الديك توفي 1300 هجري. أي قبل تأسيس إسرائيل بأكثر من 65 عاماً. أنا وهذه المقبرة وهؤلاء الأموات هم السكان الأصليون، وهم سؤال العدالة يا وحيد. أقرأ الفاتحة على الأموات أنا المسيحي الذي بدأ يعيش تفكك الرواية نحو الحالة، فأنا أريد أن أكون فلسطينيا على طريقتهم لأنهم أموات، ولأنهم أكثر أصالة مني.

على اليسار من سور المقبرة، يمتد درج مسجد الاستقلال، مسجد الشيخ عز الدين القسام، وللمرة الأولى أذكره دون أن أهتم إن كان مسلما أو مسيحيا أو سوريا أو غير ذلك، لقد كان فلسطينيا وكفى. صدقت أيها الوحيد الدين الفلسطيني دين الحالة.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

تشخيص: حمى بأثر رجعي

الطبيب يعيش حالات السحر؛ مريض بعمى ألوان الأعراض، حالات ارتجاج في اليقين، عدم إيمان بالمنطق، والشك واليأس من فكرة الداء والدواء. الطبيب ليس هو الطبيب، ربما يكون عرضا طارئا غير نفسه، وحتى الاسم (بشارة) سقَط سهوا في حالة من الشهوة والتضخم والانفتاح الوريدي.

خطأ سابق في التشخيص أدى إلى تمكن المرض وانتشاره، التشخيص الذي هو حالة طبية ثابتة يبدو الآن مشكوك فيه، وهو أمر لا يمكن للطب استيعابه. يشبه الحمى بأثر رجعي بعد انتهاء المرض والشفاء التام. الحمى التي رافقت الالتهاب تعود الآن بعد الخطأ في التشخيص، بعدما ظن استقرار الحالة وانتهاء العلاج. أجهزة الجسم الحيوية والأعضاء الأساسية تفقد وظيفتها وتتداخل؛ فالعين تخفق، والأذن توزع الدم، وجهاز المناعة العضوي ينطلق من الحب، وعلامات الافتتان تبدو مثل

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الحصبة. كل ذلك يحدث مع الطبيب الفلسطيني المتحدث أمامكم، ربما هي معجزة الفوضى، أو أنها بداية الدخول في مرض عضال، لا يشفى منه ولا يميت!

الجهاز العصبي يملأ الفراغ فيصبح عضوياً

هذا هو العارض الأول من أعراض الحمى الراجعة لحالتي؛ الطبيب الذي اكتشف أنه كان فلسطينيا معطلا، ومسيحيا مرتبكا، وطبيبا في حالة من الشك. يافعا كنت في قلب حيفا، أعمل مع أحد أخوالي مساعدا في أعمال النجارة في أيام العطلة الصيفية عندما كنت طالبا في سنتي الجامعية الأولى. يهبط المساء فآخذ حماما ساخنا وأخرج أرقب البحر الذي يكون في النهار حديقة من الأرداف المرتجة والصدور المبتلة، صفصافها الشعر الأسود والأحمر والأشقر. أصادف بعض العمال في العمارات التي تكون في مراحلها الأخيرة قبل السكن يتحدثون العربية مثلي. يقول عنهم اليهود: «(بعوليم عربيم). كنت أسمع أحيانا بعض النقاشات عن الحرب عن (المخربين) في لبنان عام 1982، الحرب التي شنتها (إسرائيل) على

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

(المخربين)، على (الأشف)، منظمة التحرير الفلسطينية وجماعات ياسر عرفات. هذه وضعية لا تليق بالطبيب هنا؛ وهي القفز من حالة طبية إلى أخرى دون مبرر. بعد ذلك سأتيقن أن هؤلاء (المخربين) مهجرون من هنا من أرضهم وبيوتهم في عكا وحيفا ويافا وصفد والجليل، طردوا وتركوا فراشهم الدافئ وراءهم حتى الآن، ويحاربون أملا بالعودة إليه. سأقوم بعملية غريبة بعدها -وهذا استمرار لخرق التقرير الطبي- وهي معرض للصور، للشهداء الذين هجروا واغتالتهم (إسرائيل) في المنافي، مدينة بمدينة، غسان كنفاني من عكا،أبو إياد من يافا، وهكذا.

هكذا فقط، يمكن للقارئ أن يفهم لماذا عدت من مقبرة الاستقلال، وعشت هذه الحالة المريعة بعدها من الحمى الرجعية لتاريخي في (إسرائيل)، أو تاريخ الله في وفي (إسرائيل) وفي الوحيد. فهمت بعدها أن العمال العرب هم أنا والوحيد، فربما كانوا جيراني لو لم تحتل (إسرائيل) أرضهم بدلا من المخيمات الهاجعة في نابلس وجنين وغزة وغيرها من المدن الفلسطينية. دمر هذا النقاش وغيره تفاهمي مع زوجتي مريم التي تحب أن تنادى بماري، وصل ذلك الدمار ذروته عندما أطلقت ماري على الوحيد صفة (ضفاوي).

أعود الآن لإكمال العارض الأول، كنت آخذ الحمام، وأجلس على شرفة العمارة التي كان خالي يجهز مطابخها. مقابلي في الطابق العاشر في قلب حيفا وليس ببعيد عن شارع الاستقلال، تعود الجميلة الشقراء عند العاشرة من كل ليلة،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بمجرد أن تغلق الباب خلفها تبدأ بخلع ملابسها، بلوزتها العلوية وشورتها القصير، فيلمع البلاط تحت رجليها، كان انعكاس ضوء الأرضية مع ضوء القمر يرسم ملامح جسدها بشكل بارز. تمشي فيرتج نهداها. أدقق النظر إلى جسدها، أعلى فخذيها، أراقب انعكاس الضوء على ردفيها، يدق قلبي ويدق، أقترب نحو النافذة، وأرفع يدي ملوحا لها، فترد بالمثل.

تسير إلى الداخل وأنا أبتلع الفضاء بعيني، تتحول عيناي إلى كفين أحسهما. يتحول الضوء إلى عرق ولحم، انتظرها، تتحول الثواني إلى مسامات متعرقة، أستطيع أن أعد الشعر أعلى رقبتها وتحت إبطيها وأشم رائحة عرقها. تخرج مبتلة الشعر تلف جسدها بمنشفة وتسير وسط الشقة وهي ترتشف من فنجان يتصاعد منه البخار الذي يختلط ببخار يتصاعد من شعرها وجسدها. تقف في وسط الصالة، يسقط شعرها بعد أن حلت المنشفة عنه، فينطلق مثل ذنب الفرس، ترفع يديها لتلمه فيبرز نهداها مثل رمح يفقأ عيني. أمد رأسي معلقا في الفضاء بين البحر والسماء، السماء والبحر سوداوان مغلقان، وحدها أرضية الصالة مضيئة، لا عالم غير البلاط اللامع تحت قدميها، لا هواء إلا الهواء الذي يداعب نهديها وردفيها. عنقها فراشة للنور تشع فتتسع عيناي لتصبح أكبر من حيفا وتصل وراء الكرمل، أراقب وأراقب، تمد يديها نحو الأسفل، تفك المنشفة حول خصرها، طارت العصافير الملونة وغرد العندليب وانتشر العطر فوق البحر. ترفع المنشفة، تبقى بملابسها الداخلية، أرفع

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

رأسي وأمده وأمد جسدي أكثر، أقف على رأس أصابع رجلي، أحاول أن أصرخ، فأصمت، وألوح لها ثانية، فترد بالمثل.

لا أنام تلك الليلة، أنتظرها في كل جزء من الثانية، تقوم ببعض التمارين الرياضية ثمّ تعود إلى كأسها وترتشف أكثر. أسرح بخيالي؛ ستكون حبيبتي، فنحن شعب واحد و(دولة) واحدة، وأقاربي أصدقاء لمعظم اليهود في هذه المدينة، وربما تكون ابنة أحدهم. بعد دعوة إلى العشاء، سأدعوها إلى هنا، وأشمها شمة عميقة بلساني، سأتحسس شعرها وأضمها وأهمس بأذنيها وأداعب شعرها الأشقر بأصابعي. علاقة حبنا ستكون علامة على التعايش واستجابة طبية لنزعة المحبة، المحبة فقط، وباللغة (العبرية) سأقول لها كلاما يذيب الصخر عن الجمال والعشق.

كان ذلك قبل ربع قرن تقريبا، لماذا تعود الحمى بأثر رجعي بعد شفاء المرض؟! هل يملك المرض ذاكرة أم انه يؤسسها؟ أم أنني كنت واقعيا مريضا؟ تلك هي أعراض الحمى الأولى.

في كل صباح بعد تلك الليلة أستحم صباحا وأحلق ذقني وأمشط شعري؛ فأنا طبيب نجار، مواطن مهم في هذه (الدولة) ينادى بالمساواة والمحبة التي تذيب كل حجارة الأعراق، بعد ذلك -وهذا استدراك لا يليق بتسلسل التقرير الطبي- مرة أخرى أقر وأعترف بأن المحبة كانت نهدا مزورا، كانت تلقيحا كاذبا.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بالعودة لاستكمال آثار الحمى، يسخر خالي مني:

- رايح على حفلة أم على ورشة؟

- الترتيب مهم يا خالي.

ارسم -وهذا من حمى الاحتمالات- أن تلاقيني صدفة أو ترسلني قدرة غريبة إلى شقتها، فيحدث اللقاء الحميم، وتبدأ الخطوة الأولى نحو أنفاس الحب والتحام الجسد؛ فالمحبة الحق هي الله، والمحبة تفعل مثل هذه الأشياء.

ثمانية عشر يوما، كأنهن عمري بالسنوات، وضوء جسدها يكبر في أحشائي، ترسم عالمي دون أن أراها. من صور الحمى الرجعية ذات يوم أنني انتظرت عودتها على الشرفة، لم تضحك الشرفات، وبقيت الشقة مظلمة. بدأت دقات قلبي تتسارع وأنا أنظر إلى البحر، كان موجا من الدمع والآهات، لم تعد تلك الشقراء، شبابيكها المغلقة أطفأت عيني، حمامها البارد الجاف يكبل خيالي، لم تعد. قلت: ربما كانت متأخرة، سأسهر بانتظار عودتها، أغفو وأغفو، يتدلى رأسي فأرفعه فزعا، أتلهف لأرى النوافذ المضيئة، أشم منشفتها المعلقة من بعيد وأتحسسها بهواء البحر.

أسهر ممنيا نفسي بخيالات أصبحت مثل حالة عضوية، أنتظرها حتى تخرج من الحمام، أشم رائحة جسدها المعطر وشعرها المبلل، أخلع منشفتها فيهتز البحر حولي ويتصاعد

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

موجه ليتلصص على حنوي عليها. أرتب الكلمات التي سأقولها لها بالعبرية، وأختار أجمل الأوصاف لصدرها وردفيها ورؤوس أصابعها، أوقفها وسط الصالة، أضع أصابع رجلي مقابل أصابع رجليها حتى الالتحام، فيلمس صدرها البارز صدري وركبتيها ركبتي. لسعني نسيم البحر معلنا شروق الشمس، لكن الشبابيك مغلقة والأضواء مطفأة!

المحبة كانت تحرسني، أو هكذا كانت أعراض تلقيحي بالمحبة، مثلما تلقحت بالحب واليقين والشهوة لمدة ثمانية عشر يوما أعيد الآن تذكرها بأثر رجعي على أنها إحدى آليات اكتساب اليقين الذي ربما يتبين بعد صدمة ما بأنه كان مرضا. يعيش بشارة الآن حالة اكتساب المرض مقارنة بأعراض مرض جديد بعد أن خسر الصحة إلى الأبد. أين أنت أيها الوحيد؟ إنك قابع الآن تحت وطأة الظلم وتقيح الجرح. كيف تركت خلفك في نابلس عجوزا وقبرين؟ كنت أنت الحالة والرواية، وأنا شاهدك الوحيد.

بعد ثمانية عشر يوما، وزعت خيالاتي فيها من الناصرة عبر عكا إلى حيفا إلى الجامعة وكل شجر الكرمل. جاءت المعجزة واستمع الرب إلى تنهداتي، أخيرا سأقرأ جسدها، إنه اللقاء والارتواء بعد دهر من المرض والتلوي والآهات وإتقان سماع الأغاني العبرية التي تنقل هذه المشاعر. هنا استحضر الوحيد وحديثه عن الروايات واللغة والمعاني والحالات،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لأغني لها بالعبرية، وسأعلمها أن فيروز هو صوتي المفضل. الذي ذكرني أنني فلسطيني عربي؛ وهذا استدراك يدمر عمل الطبيب. سأتحول داخل فيروز، من فيروز النبي إلى فيروز: «الغضب الساطع آت»، و«من صلب كل نبي صلب الليلة شعبي»، و«وحدهن بيبقوا مثل زهر البيلسان».

يأتي صوت خالي حاملا البشارة دون أن يعلم:

- غدا سنذهب إلى العمارة المقابلة في الطابق العاشر لتنفيذ بعض الديكورات.

إنها المعجزة حقا، يا الهي لم أنم تلك الليلة، ارتديت قميصا جديدا اشتريته من محل جديد فتح بجانب المطاحن على الجهة المقابلة لمقبرة الاستقلال، أين أنت يا وحيد؟ بدأ قلبي يعيش حنان اللقاء، وكادت دمعتي تفر من عيني وأنا أشكر الرب.

أعد الدرجات في الصعود درجة درجة، أحمل حقيبة الأدوات، كأني طبيب يزور مريضا. لحظة الحقيقة تقترب، مسامات جلدي تتفتح وأنفاسي تسخن.

يسال خالي. «ما بك بشارة».

أبدا. أبدا. إنه التعب، يدق خالي الجرس، أنتظر باب الجنة يفتح كاشفا لي عن شعرها، أعيش خيالات الاحتمالات، ماذا سيكون لباسها؟ أسمع دبيب الخطوات، قفل الباب يتحرك، ينفتح الباب عن نسيم الجنة، تطل. هنا أهبط مثل قطعة قماش على فزاعة المقاثي، يقول: «بكاشا أدون».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كان شابا طويل الشعر، قلت في نفسي ربما يرتدي ملابس أخته التوأم، يا الهي، ما هذا الشبه؟! دون تفكير، سألته:

- تعيش وحدك؟

- نعم.

- طوال الوقت؟

- نعم.

- لكن البيت في الغالب مظلم.

- أعود ليلا فأنا عازف في أحد ملاهي حيفا.

- لا يوجد لك شريك في البيت؟

- أبدا.

لم يكن توأما، كان هو هو نفسه، الشورت والمنشفة ما تزالان معلقتين، حتى الكأس بالقرب من طاولة التلفزيون كان كما ترك يا وحيد. هل هذه حالة أم رواية أم عملية تلقيح؟ ولماذا أفرغ علينا الرب لقاحه في عقول هؤلاء المجانين بعد ثلاثة ألاف عام؟ ومن قال برواية المحبة قال برواية «الجبل المضيء في مواجهة الجبل المظلم». صدقت أيها الوحيد: التلقيح ثانية في حضوره يعادل أزلية في الوجود. وحدها تلقيحات روايات الرب في عقول اليهود تحولت إلى عرق، وبعد اختراع البارود تحولت إلى جغرافيا، سبحان الرب!

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لكل فعل ردة فعل معاكسة له في الاتجاه

الناصرة. الخامسة فجرا دون أن أعرف للنوم طعما، أسهر مع الوحيد في زنرانته، أستعيد سؤال المحبة والعدالة، أحمل وثائقي وأمشي. تلاقيني مريم.

- إلى أين؟

- لدي شغل.

- وين؟

- في نابلس.

-إيه إيه نابلس. ما شفنا الخير من نابلس.

- لماذا تعلقين الصليب في عنقك؟!

- هل تريد تغيير العالم يا بشارة، اللي صار صار، وأولادنا ونحنا عايشين هون، واللي صار إحنا ما دخلنا فيه.

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

- قالها المسيح مريم قبل ذبحه: «تم كل شيء».

- ستخرب بيتنا.

- مع السلامة أنا ذاهب إلى نابلس لزيارة أم الوحيد.

- ما المسلمين والفلسطينيه نفسهم تصالحوا معهن.

- صحيح، هناك خيانات لا يتقبلها إلا الدين أحيانا، وأنت مش فلسطينية؟!

- رح تخرب بيتنا. تذكر.

أشغل محرك السيارة، قليل من الندى يغطي الزجاج الأمامي، الضباب الخفيف يلف جبل سيخ، تظهر كنيسة البشارة هاجعة. أخترق الناصرة الجديدة أو (نتسيرت عيليت) بالعبرية. أصاب بحمى الأثر الرجعي في كل الأشياء، لم يعد هناك رب بل أرباب، وكل عملية تلقيح تشبه ظل العازف في شرفته. من يعيد إلي نشوة الثمانية عشر يوما التي ما وسعت الأرض؟ وكدت أصاب بالكآبة والجنون وتخدر جسدي بلذة واشتهاء وانتظار لم يتكرر حتى الآن. لماذا علينا أنا والوحيد وسليمان الصالح وليلى وريبكا وغسان كنفاني وصلاح خلف وكمال ناصر وكمال عدوان ووديع حداد وخليل الوزير ودلال المغربي ومحمود درويش وادوارد سعيد وغيرهم من مئات آلاف الفلسطينيين أن ندفع ثمن روايات الرب هنا؟ وأي رب هذا الذي يعادل ثلاثة آلاف عام من الحضور بثلاثة آلاف عام من

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الغياب، وينتظر اختراع البارود والسفينة والشيوعية ليتم وعده؟!

في أول زيارة للوحيد بعد عودته إلى نابلس وقت مرض الجد وفي نقاش سريع، شرح لي الوحيد الفرق بين التلقيح الطبي والتلقيح التاريخي، وهو أن التلقيح الطبي عضوي وفردي، بينما تلقيح الرواية التاريخية تلقيح مخيالي جماعي أداته اللغة، وهي أداة هلامية رخوة لا يمكن وضعها في قالب ثابت، وإنما هي دائما عرضة للحمى الرجعية. اشترى لي نسخة من تسجيل لقارئ للقرآن يسمى الشيخ الطبلاوي يصور فيها المفهوم والرواية القرآنية للمسيح. سألت الوحيد: دعني أقرأها من القرآن؟ قال: ستخسر حالة من مداعبة الحواس للاستعداد، السماع حالة من الاستهواء والخشوع والدعوة لتقمص الرواية والتلاوة. أسمع مخترقا الطريق بين حيفا وجنين، متذكرا الأغنية الفلسطينية القديمة قبل وجود (إسرائيل) «ما بين حيفا وجنين شدينا ظهور الخيل». أسمع:

﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة:109-115].

تغرق عيناي بالدموع، وألامس الرب هنا أيضا، إنه الرب فعلا. أحتاجك أحتاجك، اخفض جناحيك وامنحني ملكوتك، لا تصمت أمام الدم الذي يراق باسمك. ساعدني يا يسوع، ساعدني يا محمد دون غواية الروايات واحتمالاتها، أليست فلسطين أرضك هي التي خلقت الروايات؟ فلماذا تدفع ثمنها وتقف صامتا أمام أمراض البشر باسمك؟ صدقت أيها الوحيد عندما قلت: في اليهودية يجب أن تكره وتقتل لتؤمن، وفي الإسلام يجب أن تقرأ التاريخ، وفي المسيحية يجب أن تكون فيلسوفا، فماذا يفعل الطيبون والأميون والبسطاء؟!

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بعد سماعي للقرآن في ذلك الفجر الرهيب، ورائحة موت سليمان الصالح وارتطام رأسه بجدران السيارة، وعينا الوحيد المحمرتان دمعا ودما المتجمدتان من أجلي، شعرت أن الحقيقة تشبه قطرات المطر، كل قطرة لها منشأها وبحرها ومكان رجوعها إلى الأرض.

خطرت على بالي في تلك اللحظات رواية الإسراء والمعراج التي كان الوحيد مغرما بتحليلها، فهو يرى أن الله أراد أن يقتل البعد المكاني والزماني للأنبياء، ويجعلهم وحدة واحدة، واختار فلسطين لأنها أرض المعجزة والسحر، وهي موضع هبوط الرب وصعود محمد ونصرة إبراهيم. لا أملك أنا الطبيب الصبر على هذه التفاصيل ولا حتى على معرفتها، ما تهمني هي النتيجة التي كنت تقولها وشاركت بها ربيكا مرة: «لقد توحد الأنبياء مع الله في السماء، وتجمعوا هنا ضده».

الثامنة صباحا. إنها نابلس فلسطينية صافية، باستثناء أبراج المستوطنات واللافتات التي تشير إليها بالعبرية، هكذا بدأت (إسرائيل) قبل نحو ستين عاما، هذا مشهد يرعبني. الأزقة والجبل وصور الشهداء وجامعة النجاح الوطنية خطوة الوحيد الأولى حسب قوله، فلسطينية لأنها تقاتل وبها بقايا المطلوبين والمقاتلين وقبور الشهداء الكثيرة. يطل بيت الوحيد أمامي على خاصرة جبل جرزيم، قبران في هذا البيت وأرملة تحافظ على تماسكها، والدها يا ماري صاحب أول مطبعة

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ومكتبة في حيفا، موجودة قبل وجود (إسرائيل) بأكثر من ثلاثين عاما. أدخل سور المنزل، تفتح الباب، أهرع نحوها وأسلم وأقبل رأسها. تقول: «هلا يا حبيبي تعال والله اشتقت لطلة صالح».

أسير نحو القبرين. أقرأ الفاتحة على روحهما وفق روايتي وحملي المسيحي حول سكينة الروح وراحتها.

- في شي جديد يا أمي يا بشارة؟

- سيكون بخير، أقترح علي محامٍ صديق فكرة.

- شو هي؟

- أن ندخل مدخلا إنسانيا حول يتم الوحيد، وحالته عندما رأى جثة والده في القبر.

- شو بعد هيك؟

- قال المحامي سنقول لاستعطاف المحكمة واسترحامها: «أنه كان غير متوازن، وكان ضحية للعنف لتخفيف الحكم».

- ليمت الوحيد سليما، أفضل من يعيش مريضا.

مسكت يدي ونظرت نحو القبرين، ومسحت وجهها، ثم نظرت نحو شفق البحر دون أن تقول كلمة. في رحلة معاكسة ترن عبارة أم الوحيد في أذني كصراخ الجلجلة. أريد أن أغوص هنا أكثر لأرطب فلسطينيتي فيما تبقى من النقاء الفلسطيني لغة

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

وطعاما ومقابر وشهداء، تتوزع صورهم على جدران حارة الياسمين التي أخترقها وحدي في تكرار للمشوار اليتيم الذي مشيناه أنا والوحيد، وتحضرني ملامح شارع الآلام والقيامة في القدس. أسير مخترقا حارة الياسمين وظل الصباح مع الحجارة القديمة يرطب الروح. الأقواس الحجرية هنا تعيدني إلى أقواس عكا، والحجارة هي نفسها والسوق بنفس الرائحة، رائحة الحمص والفول والخبز المحمص والنعناع مع الشاي، ومئذنة جامع الجزار تتناسخ مع مئذنة الجامع الكبير، لو كانت نابلس على البحر لكان سوق السمك هنا في ساحة حارة الياسمين عند المحمص الأقدم.

أستمر بالمشي وأحس بالوحيد إلى جانبي. أشتري الفستق والخبز الذي تختلط رائحته مع رائحة المكسرات المحمصة ورائحة القهوة في المطاحن القديمة. وما أن تحين ساعة الضحى حتى يضحك صحن الكنافة مداعبا الريق ومثيرا للخلايا العصبية، فالكنافة هنا حالة مهدئة وطقس من عشق المكان. أمشي خطوة للأمام، ويرجع خيالي خطوة للوراء، ما زالت العبارة تلتهمني: «أن يموت الوحيد سليما، أفضل من أن يعيش مريضا». ترى لو طبقت هذه العبارة على الفلسطينيين، كم سيبقى منهم على قيد الحياة؟!

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

العلاج

يحاول الطبيب وصفا لعلاج هذه الحالة، بعض الاقتراحات هي النسيان، أو الإيمان بأن هذه إرادة الرب، أو ترك الوحيد والشهادة ضده، فأنت لن تغير التاريخ، أو الانتحار مثلا، هناك أمراض لا يعالجها الطب.

شوق غريب يدفعني لعودة نابلسية كأني وحيد جديد. أصل مسجد النصر، ساحة الشهداء ومحل الشواء القديم، تحدثني روح الوحيد القابع في عتليت على الكرمل بحثا عن فلسطينيته هناك وأنا أفتش عنها هنا. لم يذكر الإعلام (الإسرائيلي) أن الاشتباك المباشر بين الدكتور الوحيد و(الشرطة الإسرائيلية) كان شاهد منزل جد الوحيد في عين حوض، وأنه رأى الشاهد يغسل بالبول والقذارة بعد أن كان عائدا للتو من جنازة جده الذي انتظر عشرات السنين ليعود إلى عين حوض، ويدفن فيها بجانب قبر والده.

أصل ساحة المنارة، أقترب نحو محل الكنافة الأقدم في الحي، أفطر على الكنافة مع الخبز الساخن، أتحدث العربية دون

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

خلط مع العبرية، وفيروز تغني مع رائحة الخبز «الطفل في المغارة وأمه مريم وجهان يبكيان».

أسير وأسير، أخترق شارع حطين الذي بدت حجارته القديمة مثل الغربال جراء الرصاص إثر المواجهة بين مقاتلي نابلس ومخيماتها وقراها والجنود المحتلين (الإسرائيليين) جيراني. نعم جيراني هناك؛ الذين سيحضرون بعد أيام عيد ميلاد زوجتي ماري، ربما يحملون الهدايا ويتحدثون عن السلام، ويضيئون الشموع على أرواح الضحايا في بيتي في ظل صورة للمسيح.

كيف تقضي أم الوحيد نهارها وليلها؟ لا شموع في زوايا منزلها، ولا عزاء، لم يزرها إلا بعض المطلوبين وبقايا المقاتلين. غاب المسؤولون حتى لا يدخلوا دائرة الشبهة كما قالت، هؤلاء الذين حضروا ليعرضوا على الوحيد مشاريع تجارية وسياحية مقترحة ظنا منهم أنه كان يجمع المال وعاد مستثمرا. الطبيب بشارة يعيش حالة فوضى؛ فهو إما يكتب تقريرا وإما يكتب أعراضا مرضية، مهمة صعبة أن يكتب الطبيب الذي كان يكره الكتابة ويعتبرها حاجة زائدة.

أشرب فنجانا من القهوة في المقهى القديم، ومقابل محل للحلويات إلى الجهة اليمنى من شارع حطين، كراسي خشبية عمرها أكثر من ستين عاما، تغني فيروز هنا أيضا: «سنرجع يوما إلى حينا ونغرق في دافئات المنى»، «سنرجع يوما خبرني

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

العندليب غداة التقينا على منحنى، بأن البلابل لما تزل هناك تعيش بأشعارنا».

رائحة القهوة النابلسية تغرق المكان. على الجدار صورة كبيرة لياسر عرفات معلقة فوق رؤوس الجالسين. الصورة وصوت فيروز وأم الوحيد أسقطن دمعة من عيني في فنجان القهوة، وقد بدأت حجارة النرد تدق على الطاولات. أنا فلسطيني الآن، لا احتمال بدخول (إسرائيلي)، ولا مغامرة بسماع (بوكير توف).

أحمل نفسي وأسير لإعادة إنتاج رحلتنا الأولى في نابلس بعد عودة الوحيد المريضة المميتة. أدخل سينما العاصي بوابة الوحيد إلى العالم. أذكر خطواته عندما اقترب من واجهتها الأمامية التي تطل على المدينة بعد مدخل مسقوف. قال لي: «يا بشارة عندما كنت أرى اللافتة المعلقة على الحائط باسم السينما، كان كل حرف منها عصارة لقطعة من العالم: الجمال والرغبة والحب والموسيقى والبكاء واللهفة والانتظار، ودقات القلب في الظلمة ورائحة الخشب في الكراسي القديمة، وشعاع العرض السينمائي يخترق رأسي وأسمع أزيزه».

دخل الطابق الأول، لمس الجدران الخشبية المتهالكة ومسح الحائط بيديه، تأمل آثار المقاعد بعد أن تحولت السينما إلى كراج للسيارات، واستأذن حارس الكراج بالصعود إلى الطابق العلوي. قال: «هذا المسرح أغلى بضعفين؛ رؤية أوسع، وعدد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أقل، وهدوء أكبر. اسمه «اللوج». يدخل الحمامات المحيطة المحطمة المغاسل والأبواب والمرايا، ويتأمل غرفة البث المليئة بالحطام، فتغرورق عيناه وهو يقول: «لقد دفنوا لهفتي وشوقي وأحلامي؛ كانت هذه الغرفة أرض الأحلام ومنبع العجائب». قال إنه كان يشاهد الفلم وهو عائد في المساء من جامعة النجاح، ويذكرني بالمظاهرة العارمة التي خرجت من السينما بعد عرض فيلم (21 ساعة في ميونخ)، عن عملية ميونخ الأسطورية قبل اندلاع الانتفاضة عام 1987 بأشهر قليلة.

نظر إلى الأرض، والتقط بقايا الأفلام التي شهدت موتها في عرضها الأخير في غرفة البث عقب اندلاع الانتفاضة الأولى. لقد هجر القاعة روادها بعد حصار المدينة ومنع التجول المتكرر وجنازات الشهداء، وتعطلت الأحلام وتوقف النمو الطبيعي للعواطف حسب تعبير الوحيد، ليفرض على الفلسطينيين بعدها الحياة بمجاورة الموت وإتقان مفرداته.

التقط شريط الفلم من بين الردم والحجارة، رفع الشريط مقابل الضوء وتأمل الصور صورة صورة حتى تعرف على الفلم، كان فلما هنديا. وضع بقايا الشريط في جيبه، وتأمل السقف الذي كان يتنفس مع كل فلم، ويرقص مع انفعال الجمهور وصراخه عندما تكشف اللقطة عن غضب وثورة عيني «اميتاب باتشان». ليترك الآن وحيدا يبكي شهاداته وانفعالاته. «تعلمت من هذه السينما عالم العجائب، وتفتحت

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

فيها روحي، وجبت العالم الواسع، وتعلمت غواية المرأة وروعة الموسيقى. كل ذلك الآن مخنوق تحت وطأة إطارات السيارات ووحشة الصمت. خذ عمري يا بشارة واعد إلي لهفة الصورة الأولى في الظلام على تلك الستارة المتهالكة ككفن الأموات، لقد قتلوا براعم أحلامنا واغتصبونا يا صديقي».

«انظر يا بشارة، الستارة تبدو مشنوقة ويبدو السقف المشنقة. الستارة البيضاء الرقيقة ملطخة بالسواد والأوساخ، والسقف وقطع الخشب المربعة المثبتة على الجدران تبدو كجثث متفحمة، وآثار أمكنة الكراسي تشهد على آلاف الحالات والانفعالات التي مرت عليها. لقد حاصرونا منذ ذلك الوقت يا بشارة. أعد إلي الرهبة عند الوقوف على شباك التذاكر لأتخذ مقعدي المعلق بين السماء والأرض. أركض مع الجميلات وأعزف مع العازفين وأعشق مع العاشقين وأتمتع بالألوان مع كل جوقة للرقص. أفهم الوفاء والخيانة والحب وأشم عطر الجميلات. أصادق «باتشان» و«هيما ماليني»، وأحس بعذابات أحمد زكي، وسيف عبد الله غيث، وبكاء «انطوني كوين»».

الآن، يستعيد الطبيب بأثر رجعي الحمى التي أصابت الوحيد في مسرح المدينة المتوحشة، الحمى التي كشفته لي وكشفتني له. لم يستوعب اغتصاب شاهد المنزل وإهانته، فالشاهد ليس حجرا، إنه روح تصلبت كما يحدث التحول في التاريخ والطب.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

عدوى المؤرخ تصل ذروتها

المقبرة. مقبرة الاستقلال عيادتي. أضع خيمة. أعتصم فيها للمطالبة بكتابة تاريخ الأموات حفاظا على دفء ذكرياتهم. الطفل الأول إبراهيم الذي دفن في الليلة الأخيرة قبل سقوط حيفا في أواخر نيسان من العام 1948، كان في السابعة من عمره حين أصيب بالحمى. كان والده حمالا في الميناء، ثم انتقل ليقاتل مع المتطوعين الفلسطينيين ضد اليهود الصهيونيين الذين خبأوا السلاح الحديث للغدر بجيرانهم. وأنا اكتب هذه التجربة في عجالة لا أدري ما الذي سيحدث معي قبل صبيحة اليوم التالي.

الطبيب الذي يعيش عدوى الشواهد مع الوحيد يريد أن يضع شاهدا لكل قبر في مقابر فلسطين قبل تأسيس (إسرائيل)؛ فالكتابة عن التاريخ الأصيل أولى من الكتابة عن التاريخ الطارئ. قبر إبراهيم هو القبر الأول عند الزاوية الجنوبية لمقبرة الاستقلال مقابل باب مسجد الاستقلال نحو الجنوب الشرقي. بدأت أسمع وأستعيد هذا التاريخ مما كتب عن الأيام الأخيرة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

قبل سقوط حيفا من المؤرخين الفلسطينيين. كانت الذاكرة هنا علاج لمرض الموت. لا يمكن نقل الخلايا في الطب، لكن يمكن نقل الذكريات والروايات لتعيش. هذا هو الفرق بين الروايات والحالات. كنت أقول للوحيد: «لدي حالات ولديك روايات»، فيهز رأسه قائلا: «الروايات تصبح حالات يا بشارة».

سمعت آمنة أم إبراهيم وأخته الصغرى سارة والجيران صوت الانفجارات والقنابل، ورأوا الجثث في الطريق، وشموا الدخان القادم من بين المنازل والحارات. كان منزلهم بالقرب من جامع الجرينة وسط المدينة، وسمعوا النداء الأخير من قوات الانتداب البريطانية بركوب السفن أو الموت. مات إبراهيم خوفا ومرضا ودفن على عجل، كان جثمانه قريبا من سطح الأرض. غادرت الأم والطفلة وبقى خبر الأب مجهولا. تركب الأم السفينة مع طفلتها، وتبكي بكاء حارا وهي تهرول وتنوح حتى سمعتها الأحياء القريبة والبحر: «من سيفك وحدة إبراهيم صباح الغد؟ لم يقتلني موته وإنما قتلتني وحدته. من سيزور قبره كل خميس؟ ريتني أنا وأختك اندفنا معك».

سيكون شاهد قبر إبراهيم الخطوة الأولى لكتابة تاريخ المقبرة المهملة هنا بين العمارات المنبعثة نحو السماء، وكل قبر له شاهد تماما مثل أي بيت. في ذلك النهار الأول سأرتب حجارة الشواهد المحطمة، وسأزيل آثار الأوساخ والبلاستيك المتطاير عن سور المقبرة وسياجها الحديدي، وسأقتلع اللافتة المكتوبة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بالعبرية، وسأكشف معالم القبور قبرا قبرا. كل من حولي يمر وينظر مشدوها، وستتحول السيارات إلى وجوه مستغربة وأفواه فاغرة.

يهبط الليل، فأذهب إلى قبر الصغير إبراهيم. أنظر حولك يا برهوم، عمارات وسيارات باللوحات الصفراء، وقطارات، وأطفال يلعبون بجوار قبرك جاءوا من أرجاء العالم، تنفسوا هواءك، وسيجوا بحرك وخنقوك هناك، واقتلعوا شاهد قبرك البسيط. أنا بشارة سأفك وحدتك بعد أكثر من خمسين عاما من الموت الأخرس، وسأجعل شاهد قبرك لسانك.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الطبيب يستجيب لأمر الشرطي
لكنه لا يجبر حواسه.
عيد الميلاد وصور الأموات.

الصباح التالي لليلة ما بعد المقبرة. نوم دون نوم، تقلب وتقمص للحجارة وحصى المقبرة وغبارها، وبدلا من جوانب السرير شواهد القبور، والفراش الذي اعتدته منذ عشرين يتحول إلى زجاج محطم، وشواهد قبور الاستقلال تحاصرني وتطوف المنزل كالبلالين الملونة التي تتطاير احتفالا بعيد ميلاد ماري.

تمتد الطاولات في الصالة بشكل مستطيل، وتتزين بأصناف الحلويات والكعك والعصائر. عبارات الترحيب على البلالين، بعضها بالعبرية وبعضها الآخر بالعربية، وتتدلى بألوانها الصفراء والحمراء والزرقاء والبيضاء، وتضرب رؤوس المارين. الكثير من الكعك الملون وقوالب الجاتوه يتوسطها قالب كبير باسم ماري الذي كتب باللون الأبيض على سطح الكعكة البنية. الكراسي مرتبة حول الطاولة المستديرة، بينما تستعد ماري لارتداء فستانها المخصص للاحتفال واستقبال الهدايا.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بعد قليل يمتلئ المنزل بالأهل والأصدقاء والزملاء في العمل: زملائي وزملاء ماري من جيراننا (الإسرائيليين)، وأبناؤهم سيلعبون ويمرحون حتى منصف الليل، ويغرقون في لذائذ الحلويات التي تصنعها الشركات الإسرائيلية بلبن وعسل وتمر وعنب أرض (إسرائيل).

أبدأ بتعليق الصور على الحائط الجنوبي في شقتي المطلة على البحر وعلى جبل سيخ الذي يسند خاصرة الناصرة من الجنوب والشرق. بينما كان أبنائي يعلقون البلالين والزينة وينظمون الكراسي. إبراهيم وجوليانا اللذان يتفتحان مثل عباد الشمس نحو الضوء وتتوزع كلماتهم بين العبرية والعربية وأحيانا الإنجليزية لا ينتبهون إلى ما أفعل. أنظر إليهما وأفكر كيف أنهما قبل أسابيع قليلة احتفلا بعيد (الاستقلال)، (استقلال إسرائيل). وأنشدوا بالعبرية والعربية: «بعيد الاستقلال نفرح ونتهنا»، ولوحوا بـ(العلم الإسرائيلي) فوق رؤوسهم على أرض أجدادهم وأعمامهم وأخوالهم الذين هربوا من النيران والمذابح، وتركوا قبور أحبائهم دافئة التراب دون زيارات، بينما كنت أنا أراقب مسيرات النكبة في شوارع نابلس وأشاهد قيامة المفاتيح.

يغني إبراهيم وترقص ماري. يسألني إبراهيم: ما بدك تفطر بابا؟ أخبره بأني أخضرت أمس حمصا وزعترا وخبزا وقهوة من نابلس. يسير نحو الثلاجة ويحضر الأشياء، تسال ماري من المطبخ: هل أنت متأكد من نظافة الحمص بشارة؟!

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ألا تشتري الحمص من أبي جورج كل يوم؟!

- ما العلاقة؟!

- لو لم تقم (إسرائيل) لكان صانع الحمص في نابلس جارك الآن وربما بنفس الاسم.

- أووف من هالقصة.

- ماري، جد أم الوحيد صاحب المطبعة الأولى في حيفا، ويا أولاد كل قادم إلى حفلة عيد ميلاد أمكم الليلة أخذ مكان ولد مثلكم يعيش الآن في مخيمات نابلس ولبنان و....

- ممكن نؤجل الحكي هاد لبعد اليوم بشارة؟

يعلو صوت فيروز في البيت، وربما كان هو الشيء الوحيد الذي يوحدنا أنا وماري وإبراهيم وجوليانا في تلك اللحظة. أذهب إلى الصور وأعلقها واحدة تلو الأخرى.

صورة لصلاح خلف، وأخرى لوديع حداد، وثالثة لغسان كنفاني، ورابعة لكمال ناصر، وخامسة لخليل الوزير، وسادسة لوائل زعيتر، وسابعة لصبري الشريف، وثامنة لإسماعيل شموط، وتاسعة لناجي العلي، وعاشرة لأبي عرب. يأتي الأولاد مسرعين مندهشين:

- كل هدول أقاربك بابا؟!

- نعم بابا.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

تأتي ماري في هذه اللحظة.

- ما هذا بشارة؟!

- صور أقاربنا كما ترين.

- أي أقارب؟!

- أقاربنا من حيفا ويافا وصفد وعكا وأمريكا وإيطاليا.

- بدك إياني أنجن بشارة؟!

- أبدا. مين أقرب علينا هؤلاء أم الضحايا الإسرائيليين الذين نرفع صورهم في ذكراهم؟

- لا لا. خلص ناوي تخرب بيتنا فعلا، وممكن تخليها وقت وصول الضيوف كمان!

- طبعا ماري، الأولى أن لا نخجل بضحايانا وجيراننا الأصليين.

- يوم فرحتي بشارة.

- ألا يجدر بنا أن نذكر المظلومين وقت فرحنا؟!

يقترب الأولاد مني، من هؤلاء بابا؟! عندما ألصق ملخص السيرة مع كل صورة ستعرفون.

«صلاح خلف: ولد في يافا عام 1933. هجر قبل إنشاء (إسرائيل) بيوم واحد، ضربه الأطفال اليهود وحطموا دراجته.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

اغتيل في تونس عام 1991. حارب من أجل العودة لبيته، لكنه دفن في تونس وما زال شاهد قبره شاخصا.

وديع حداد: ولد في صفد عام 1929. عمل طبيبا وشارك بحرب العودة. اغتالته (إسرائيل) بالسم في ألمانيا عام 1978. دفن في بغداد، وبقي قبره في صفد أشد أحلامه.

غسان كنفاني: ولد في عكا عام 1936 كان روائيا ومترجما، وظل يحلم بالعودة إلى عكا والبرتقال ويافا. اغتالته (إسرائيل) مع ابنة أخته بالمتفجرات، وتطايرت أشلاؤهما في بيروت عام 1972. دفن في بيروت ولم يعد إلى عكا حتى الآن.

كمال ناصر: ولد في بلدة بيرزيت عام 1925 كان شاعرا ظل يحلم بالعودة. اغتالته (إسرائيل) بإطلاق الرصاص في فمه في بيروت عام 1973 مع كمال عدوان وأبي يوسف النجار. نفذت وصيته بأن يدفن إلى جانب غسان كنفاني.

خليل الوزير: ولد في الرملة عام 1935 من مؤسسي الثورة الفلسطينية، وقد حارب ليعود وليس ليقتل. اغتالته (إسرائيل) في تونس، وأفرغت أكثر من سبعين رصاصة في جسده عام 1988. دفن في مخيم اليرموك في سوريا، ولم يعد، ومازال قبره وحيدا.

وائل زعيتر: ولد نابلس عام 1934. كان ممثلا لمنظمة التحرير في روما مترجما كبيرا، اغتيل في روما برصاصة في رأسه

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

عام 1972 بينما كان يحمل الكتب بيديه. ظل يحلم بالعودة إلى فلسطين. دفن في مخيم اليرموك، ولم يتحقق حلمه بأن يدفن في نابلس.

صبري الشريف: ولد في يافا عام 1922 كان مخرجا وإعلاميا، قطعت جذوره من حيفا وأزهرت في بيروت مع فيروز، إذ أخرج معظم مسرحياتها بعد أن نقل إرث إذاعة «هنا القدس» إلى بيروت والشام. أسس عددا من الإذاعات العربية. توفي عام 1999 وهو يحلم بحنان تراب يافا. دفن في بيروت.

إسماعيل شموط: ولد في اللد عام 1930 كان فنانا تشكيليا رسم اللجوء والموت عطشا أثناء النكبة بعد أن توفي أخوه توفيق من العطش في طريق الهجرة من اللد. توفي في ألمانيا بعد أن أجرى عملية في القلب. دفن بعيدا بعد أن وزع قبره عبر لوحاته.

ناجي العلي: ولد في قرية الشجرة عام1937. هجر إلي لبنان. كان رساما كاريكاتيريا. ظل يحلم بقمر فلسطين. اخترع الطفل «حنظلة» الذي أدار ظهره للعالم. أسكتته رصاصة في الرأس في لندن التي دفن فيها. لن يعود إلى الشجرة إلى الأبد.

أبو عرب: ولد في قرية الشجرة عام 1931. قتل والده عام 1948 أثناء مقاومته لمصادرة بيته، كما قتل ابنه أثناء الهجوم الإسرائيلي على لبنان عام 1982 أسس فرقة ناجي العلي. ظل

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يغني لفلسطين حتى الآن وهو يردد: «هدي يا بحر هدي طولنا في غيبتنا».

يرن جرس الباب، إيلا وابنتها زميلة ماري بالمدرسة، يهودية من أصول هولندية، تحب (إسرائيل) وتحب السلام. تدخل تحتضن ماري بلهفة «شنا توفا»، وتحضر هديتها. يستمر جرس الباب بالرنين، ومع كل رنة ضجة جديدة وقبلات، أصدقاء منذ عشرين عاما يشاركون ماري فرحتها. يأتي الدكتور اسحق وزوجته، أقوم وأسلم. ينتشر الضيوف في المنزل. يأخذون حلواهم ويتحلقون حول الطاولة مع بعض العصير. عندما يحل الليل ستطفئ ماري الشموع، وستشارك صور الراحلين على شكل شواهد قبور في الاحتفال، أليست صور الشهداء شواهد قبور تتنفس؟! ترتدي ماري فستانا أزرق اللون بلون السماء، عليه قلائد بلون الفضة، وسرحت شعرها بطريقة افتقدتها منذ مدة. صدقت أيها الوحيد: إن الفرح يفجر الجمال في الجسد.

في ذروة الموسيقى وإيقاع الثرثرة وعبارات الترحيب والقبلات والأحضان يدق الباب بشكل عنيف هذه المرة ولا يرن الجرس، ربما كانت مزحة ثقيلة. يعود إبراهيم من عند الباب شاحب اللون، بابا: شرطي على الباب. يحدق الجميع بي، ويسود الصمت بينما ترتفع أصوات الزينة وارتطام البلالين وهمس تيار خفيف من الهواء يقلب بعض الكؤوس الفارغة

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

على الطاولة. أفتح الباب، فيسلمني شرطيان مغلفا بعد حديث قصير. تتسع حدقات الضيوف والأبناء، وقبل أي سؤال أفتح الرسالة وأخبرهم: أنه أمر عسكري بالإقامة الجبرية في المنزل لحين المحاكمة.

دون سابق إنذار ودون انتظار ينسحب الجميع بعد كلمات اعتذار قليلة، تلم الزائرات حقائبهن، ويلحق بهن الرجال، ويغادر الدكتور اسحق آخر واحد دون تعليق أو تساؤل أو مواساة. غادروا وتركوا الحلوى والشمع وصوت صرير الريح. بينما وقفنا نحن الأربعة أمام الطاولة مقابل قالب الحلوى الكبير نقرأ الأمر العسكري سويا، وقبل أن تغادر ماري إلى غرفتها وقد شرقت بالبكاء صرخت بوجهي: «مبسوط هلا على خراب بيتنا»!

الطبيب يجري عملية جراحية لغوية

نمت وحيدا تلك الليلة على الأريكة في الصالون الرئيس، أطفأت الأضواء وبقي خيط الريح الخفيف يزفر، وكان ظل الحلوى وظل الضيوف الهاربين وظلال صور الشهداء وما تحمله من عذابات وحكايات في تلك الليلة الصعبة. سهرت جوليانا معي، رأيت في عينيها ألما كبيرا كلما ضغطت على يدي وضمتني، بينما عبس إبراهيم وذهب لينام في غرفة أمه.

كان الصبح يراقبني ليبزغ، وقفت على شرفة المنزل مع بداية البرد وضباب البحر القادم المرتفع من الغرب. ذهبت جوليانا لتنام بعد أن أنهكها السهر وبقيت وحيدا أشرب القهوة، وأنظر نحو البحر ونحو عكا وحيفا، وأستعيد طريقي من الناصرة إلى حيفا مقابل البحر، وكيف تغير طيلة عشرين سنة؟ لقد كان أقرب إلى فلسطينيته بالتأكيد. لكني لم أفطن، لقد تأخرت كثيرا، وأعترف بذلك في اليوم الأول من إقامتي الجبرية في المنزل. كان علي أن أرى بيوت أهلي وسلاسلهم الحجرية وشرفات منازلهم العالية، كان علي.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يحضر إبراهيم الجرائد ويرميها أمامي عابسا. مرة أخرى تعود محاكمة الوحيد إلى الصفحات، هناك لغط كبير وتناقض في الأخبار. الشيء الملفت هو اعتذار القاضي بعد جلسة من جلسات المحاكمة، تقول الصحف إن ذلك لم يكن إلا صدفة. بينما تنشر إحدى الصحف المتوسطة الانتشار خبرا يفيد بأن السبب في الاعتذار هو معاناة القضاة وبعض المحققين من بعض المشاكل النفسية جراء هذه المحاكمة، ذلك أن الدكتور الفلسطيني يملك قدرة عجيبة على قراءة تاريخهم وواقعهم، حتى أنه علم ألوان ملابسهم الداخلية وليالي سهرهم وحتى شذوذ بعضهم، الأمر الذي دفعهم للاعتذار عن الاستمرار بهذه القضية الغريبة. وتجاوز الأمر ذلك إلى الحد الذي دفع أحد القضاة إلى محاولة الانتحار بعدما كشف الوحيد عن عقده النفسية وساديته الجنسية. ويتم تناقل بعض الأخبار عن محاولة قتل أحد القضاة لنفسه عندما أخبره الوحيد بأنه لا ينجب بعد تعرضه لحادث سري ذكره له باليوم والساعة.

يرن هاتف المنزل، كان صوت ريبكا مذهولا حزينا؛ فقد اعتادت ريبكا بين فترة وأخرى أن تتصل اتصالا سريعا تسال عن الوحيد وعن أحوالي، وفي بعض الأحيان تأخذ ليلي الهاتف تسلم علي باكية وتصرخ: أريد أبي. سألتني ريبكا عن وضعي الجديد وماذا يعني؟ واعتذرت بود عن المشاكل التي أتحملها. وقبل أن أجيب ويذوب صوتها المرتج ويعلن البكاء قالت بأنها بعثت ملفا تريد مني أن أترجمه وأنشره حرفيا، وهو شهادتها وتجربتها ورؤيتها للوحيد.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الطبيب أمام عملية نقل أعضاء لغوية

لم تكن إقامة جبرية فقط، بل كتابة جبرية كذلك. ومع ترجمة شهادة ريبكا سيتحول الطبيب إلى جراح لغوي، ويعلم وقتها أن اللغة في نفسها يمكن أن تكون رواية وحالة معا، وكأن الترجمة عملية تلقيح جديدة لكنها خطرة تشبه اللعب بجينات اللغة وصفاتها الوراثية. لقد قالت ريبكا حالاتها وحالات الوحيد وليلى بلغتها، وعلي أن أبلغ الحالة نفسها بلغتي، وكأن الترجمة عملية لنقل الأعضاء تنقل الوظيفة لكنها لا تنقل الذكريات، تنقل الصباح لكنها لا تنقل الندى، وتبلغ البكاء لكنها لا تصور شكل الدموع ولا دقات القلب، تكشف عن حالات المشاهدة لكنها لا تنقل نظرة الشوق، كما تنقل الطعام ولا يمكن لها نقل الطعم. ربما كانت معرفتي ومعايشتي لكثير من الأحداث والمواقف التي سردتها ريبكا عاملا حاسما في التقاط المعنى ومحاولة تبليغه بأقل مساحة من الظلال، وكأن قدري أن لا أستريح بين الروايات والحالات والعمليات التي

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

توقفت عنها طبيا؛ لأعيدها تاريخيا ولغويا من خلال روايات وحالات كاتبة المسرح، كأن على الفلسطيني أن يكون مؤرخا وطبيبا ومريضا معا.

اللوحة الأولى: مسرح داخل المسرح

كان الوحيد -رسولي- قد وقف مشدوها يصرخ موت الممثل على المسرح، كانت نظراته الواسعة الحادة وأنفاسه السريعة وارتجاف يديه وعرقه المتصبب من جبينه وأعلى أذنيه حتى تبللت أطراف شعره وهز صراخه المكان. كانت لوحته الأولى التي ستظل تراودني وحزنه العميق، لقد فهم المغزى والقصة أكثر مني أنا الكاتبة، وربما جاوز الممثل حسرة وحنينا.

التقيته بعدها مرات ومرات، وفي كل مرة أغوص في أعماق هذا الوحيد الغامض الرهيب الذي تحمل لغته وعيناه طبقات من الأسى والفكرة، كأنه رسول جاء من الأرض الغامضة، التي لم أفهمها إلا عندما التقيته، كيف حولتنا نحن إلى مسيحيين، دون أن نفطن إلى أن المسيح كان واحدا منهم، ونحن لم نكن إلا عابرين؟ كنت وقتها أحسه مسيحا جديدا وهو المسلم.

مسك بيدي وصرخ بوجهي عندما طلبت منه أن أحول حكايته مع اليتم وفقدان البيت والانتزاع من الأم تحت وطأة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

احتمال الموت إلى مسرحية، قال وكادت شراييني أن تتفجر: هل تريدين أن أحول ماساتي إلى ملهاة على مسرحك؟ لن أستجدي أحدا.

كان قد وصف لي نومه في أحضان والدته في الليلة الأولى التي وصل فيها الخبر عن مقتل والده على حاجز (إسرائيلي) بالقرب من مدينة نابلس أثناء احتلال (إسرائيل) للضفة الغربية عام 1967، وكيف دفن والده بعيدا عن المنزل؟ وكيف كان شاهد القبر يبدو له كأنه وجه أبيه المتحجر؟ بكيت بحرقة عندما أعاد سرد مشهد انتشال جثة الأب بعد نحو عامين من دفنه، وكيف تساقط التراب من عينيه الغائرتين ومن فمه الفاغر؟ وكيف انتظر المعجزة بأن يقف والده حيا؟ لكن ذلك ما لم يحدث.

لن أنسى كيف كان الوحيد يشعر طيلة عمره بأنه كان يدوس قلب أمه مع كل خطوة بعد ما سمع -عندما كبر- كيف كانت والدته تلحق به إلى المدرسة، وتسترق سماع صوته حول غرفة الصف، وتغادر لانتظار عودته؟ لقد تربي على شاهد القبر، ومن ثم شاهد البيت، وظل يسال لماذا تندر الجنود بقتل مدرس التاريخ الوادع والأعزل والنحيل، وقاموا عندما اقتحموا أحياء المدينة ببث أغنية لأم كلثوم عبر سماعة المسجد؟ قال معلمي وقتها: كيف لا يكون سعيدا من لا يكون يتيما؟!

بعد استيعاب غياب الأب، حيث لا طعم للصباح والمساء، إذ لا أب بعد الانتظار، سيتربى على يتم المنزل وفقدانه

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بعد ما أفرغ الجد حكايته في عقل الحفيد عن توقف الحياة بعد مصادرة (إسرائيل) لمنزل الجد في عين حوض، وهي بلدة تسمى (عين هود) الآن في (إسرائيل) -فلسطين بتدخل من المترجم- وكيف تحول شاهد هذا المنزل الأصيل إلى قبر جديد؟ كيف سيكون هذا الشاهد المتروك في عين حوض منذ أكثر من خمسين عاما سببا في مواجهة دموية؟ عين حوض التي زرع فيها الجد شجرة خروب قبل سيطرة (إسرائيل) عليها بأشهر قليلة؟ وهي حالة سحرية لامتزاج الجبل والوادي والبحر والسهل في لوحة واحدة. وأن طريق المنزل المحفوف بأشجار الخروب ورائحة الزعتر، والذي تقطع طرقه المتعرجة أوراق العنب حيث البحر وسقف السماء على مستوى واحد، لذلك لم تهدمها (إسرائيل) كما فعلت بمعظم القرى المصادرة، بل حولتها إلى لوحة فنية تعلم (الفنانين الإسرائيليين) القادمين للتو الفن وسحر المكان. هل يعني هذا فعلا أن فلسطين كانت أرضا بلا شعب؟!

كان قلب الوحيد قلب رسول، لم ينم بين يدي إلا وسالت دمعته، مرة على الأم ومرة على الأب ومرة على الجد، والدمعة الكبرى كانت خوفا على ليلى من تكرار مصيره .

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

إنه لا يعلمني، إنه يهديني

أعترف الآن دون مواربة بأنني لم أكن أنظر بعين الكمال إلى العرب ولا حتى إلى اليهود، فهم ليسوا أكثر من أبناء عمومة ولدوا في الصحراء، وتعلموا منها الجفاء والجفاف، وحتى أخلاقهم ليست سوى حالة انتهازية. لم يكن في مخيالي وقراءاتي عن هذه المنطقة إلا تحجر الشهوة والدم، وأن العرب بقسوة عيشهم اجتاحوا المحيط بحثا عن الرغد والجسد، وأن أبناء عمومتهم تفوقوا عليهم باللؤم والخبث وأنتجوا أنفسهم أبناء لله، فجلسوا على موائد العالم يتباكون كالأيتام -لا يشبهون الوحيد بأي حال من الأحوال- ويستعبدون العالم باسم الرب.

ذات مرة رفعت يدي لأصفع الوحيد، كان قاسيا جد في هدايتي. قال ذات مرة ليفهمني بأنه هو ووطنه فلسطين دفعا ثمن هذه الفكرة. لم أفهم بشكل واضح. قال: «لو طلبت منك أن تهبي جسدك معزة لصديق»، قبل أن يكمل رفعت يدي

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لأصفعه، مسك يدي وحدق بي قائلا: «هكذا فعل بنا رب اليهود» نحن -الفلسطينيين- هل هناك رب يفعل ذلك؟!

أنا هنا أقاسي وحدتي وخوفي عليه، وليلى ابنته المراهقة الرقيقة التي لا تنام تنظر إلى صورته وتقول لي: «أريد أبي، لا يمكن أن يكون قاتلا، إنه رقيق، لا يمكن، لقد تركنا وذهب إلى جده المريض، أريده الآن الآن».

لا أريد إثارة الشفقة، فهذا منطق يرفضه الوحيد الذي هداني وعلمني وأجبرني بلطفه ووداعته على أن أكتشف نفسي، أنا التي اعتقدت أن مهمتي اكتشاف الآخرين. لم يخطر ببالي أنا ريبكا جونسون كاتبة المسرح أن يأتي عربي فلسطيني ليعلمني، لن أنسى حواري معه في ليلة الذروة قبل الاعتراف، وضع فنجان القهوة على الطاولة، واستأذن مني أن يسمع موسيقاه العربية، كانت أغنية لمغنٍ يدعى عبد الحليم حافظ، غني بما تسعفني لغتي -تدخل المترجم في صياغة النص-.

لو أني أعرف أن البحر عميق جدا ما أبحرت.

لو أني أعرف أن الحب خطير جدا ما أحببت.

لو أني أعرف خاتمتي ما كنت بدأت، ما كنت بدأت.

أخذت من يده فنجان القهوة، ووقفت خلفه حتى لامس صدري كتفه، فأنا في مثل طوله تقريبا.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

- هل تحبني؟

- نعم.

- لماذا؟

- إنك امرأة تستفزين أعمق المشاعر في أي رجل بجمالك وبما تكتبين.

- أي رجل؟!

- أي رجل يملك قلقا ومأساة؟

- هل تشتهيني؟

- أحبك فيصبح جسدك أثيريا.

- أتريدني؟

- ليس بعد، حتى أكون لك مثلما أنت لي.

- حتى لو خلعت ردائي!

- ستكونين عني ستارا لجسدك حتى يغيب.

- هل هذا هو الحب عند الفلسطينيين؟

- هذا هو الحب عندي.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

اللوحة الثانية: الكاتبة تعيش أوجاع شخصياتها

«إن الواقع هو الفناء الحي بين ماض مستقر ومستقبل محتمل»، كانت مقولة الوحيد التي استوقفتني كثيرا. وبعد أيام من البرد القاسي والصخب -وأنا التي كنت أطارده محبة وعشقا وفضولا- حدثت المفاجأة؛ كيف لعربي أن لا يستجيب لنداء جسد محب من امرأة شقراء غير هذا؟ عندما غادرني مسرعا في البرد ورفض قضاء الليلة معي قائلا: إن أحزانه تمنعه من الطبيعي. كتبت له القصيدة التي أحبها وأحتفظ بها، وكيف لي أنا أن أتقبل هذا التيه؟ أنا ريبكا جونسون، التي يطمح بالسهر معها كبار الكتاب والممثلين في هذا البلد وغيره. أحدث نفسي بغواية عربي فلسطيني هارب إلى هنا حتى لا يصبح موتا محتملا، أو احتمال للموت -بتدخل من المترجم-

إن هذا الوحيد -الذي كان يحمل الغموض والحزن والكآبة والقدرة الرهيبة على نشر الفرح- لم يكن مأخوذا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ببلدي، ولم يكن لديه أدنى شك بتيهها، وأنه لم يكن طالبا للأمن بقدر ما كان مؤرخا عاد على شكل انتقام رباني -ربما- لشعبه. بدت ملامح حضوره تستفز الجميع فلم يكن مشهده في المسرح هو المشهد الوحيد، فقد أتقن اللغة الإنجليزية بسرعة رهيبة، وكان يحفظ كل التواريخ واحتمالاتها حسب كل رواية في الديانات جميعها، ووصل الانبهار به إلى حد القول بأنه يوحى إليه أو أنه خارق؛ إذ لا يمكن لقوى البشر الطبيعية أن تستوعب هذه المعلومات والاحتمالات كلها، تعمقت الصدمة عندما بدأ يحضر أطروحته للدكتوراه حول التاريخ الغربي ومحاولة الخروج من الأسطورة.

لقد أنكر فكرة التقدم في تاريخنا، ورفض فكرة الإنسانية كذلك، وما صدمني هو وضعه الاشتراكية في السياق نفسه، وهي حالة مستحيلة مع عربي يريد أن يرصد الغربي.

في أحد حواراتي معه، سألته: هل أنتم أفضل؟! هز رأسه «ببساطة لا»، فاستغربت ماذا يريد؟! قال إنه يريد تقديم أطروحة نهائية عن التاريخ تحلل سلسلة التقديس التي بدأت من تقديس الجغرافيا اليهودية، ومن ثم تقديس الإنسان وتأليهه في المسيحية، وبعدها تقديس النص في الإسلام، وصولا إلى ادعاء تقديس العقل والعلم في الحضارة الغربية المعاصرة. كان يصر على فكرة الادعاء الغربي حتى أنه وصف الاشتراكية مرة بأنها مسيحية متحجرة.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لقد اتخذ الحدث المهول بنزع الشعب الفلسطيني وتشريده من أرضه عام 1948 معيارا لحالة الادعاء والوهم الغربيين؛ إذ كيف لحضارة تقول أنها ختمت التاريخ وتدعي فلسفة العلم والتقدم والاشتراكية بغض النظر عن صراعاتها أن ترعى تشريد شعب آخر وقتله وإقامة دولة دينية استجابة لوعد الرب بعد أن صرعه نبي حسب الروايات التوراتية قبل آلاف السنين؟ كيف لكل هذا العلم والجدل واكتشاف الخارطة الجينية أن يستجيب لهذه الفكرة الهشة الرهيبة؟! قائلا بأن حروب الطوائف وفكرة المعجزة أكثر إقناعا من نتيجة هذه الحضارة التي حاربت الخرافة وأعادت تشكيلها -لمجرد النوايا الحسنة - قانونا في الأمم المتحدة اتفق عليه الرأسماليون والاشتراكيون.

تحدث في أطروحته عن الروايات الدينية التي لعبت الدور الأخطر في تشكيل الهوية الغربية حسب رأيه، لم تغادر صكوك الغفران وإنما نقلتها جغرافيا مرتين: مرة عندما أفنى المهاجرون الإسبان السكان الأصلين الذين أطلقوا عليهم اسم (الهنود الحمر) باسم الرب المسيح الذي تحول إلى آلية قتل في جغرافيا جديدة وهو الفلسطيني المنشأ -الولادة- بتوضيح من المترجم، ومرة عندما سمح لليهود بإلغاء تاريخ الفلسطينيين وطردهم وتقتيلهم استجابة لأمر لما قبل المسيح. لقد كانت السكينة والسلام تاريخا حلميا، بينما كان الدم والقتل تاريخا متحققا.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

في إحدى المحاضرات التي ألقاها بمبادرة من الطلاب العرب -حضرتها طبعا- تحدث عن فلسفة الحروب الصليبية التي أعادت رواية المسيح بشكل عدواني وجنوني ضد العرب واليهود، حيث كان تطهر الرحلة يبدأ بسحق اليهود عبر الأنهار والوديان والجبال الأوروبية مرورا إلى الأراضي المقدسة.

بعد قرون، واستجابة للمصلحة والرغبة الأخلاقية الكاذبة بالاعتذار، قدم الغرب اعتذاره بدم الفلسطينيين، فكان وعد بلفور صكوك غفران جغرافي.

بعد ذلك تمت الدعوة إلى مقاطعة مسرحياتي بحجة معاداة السامية. ضحك الوحيد ضحكة حتى اغرورقت عيناه، تمخض التنوير والديمقراطية فولدا سام وحام، ألسنا أبناء عمومة؟! كيف تصبح السامية مديحا واحتقارا في آن؟! قال الوحيد وقتها وقد سهرنا إلى جانب الطريق المؤدية للمسرح: إن الأفكار التي دافعت عن الإنسان هي التي قتلته، وما الأيدولوجيات إلا نتيجة للأمراض والحاجات.

كان حواري الأخير معه تلك الليلة.

- ماذا تريد؟ تغيير العالم؟

- لا طبعا هذه فكرة لن تكتمل.

- ماذا تطمح إذن؟

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

- الانتصار للضحايا وضحايا شعبي، والدفاع عن ليلى ابنتي.

- ما بها ليلى؟

- أخشى أن تلقى مصيري، أن تعيش يتيمة.

- ما هذا الهراء؟!

- أخشى ذلك.

- إنها هنا، وأنت وأنا هنا.

- لقد كانوا هنا، ومن ثم قتلوا والدي هناك، قتله جندي لا يعرف اسم نابلس بأية لغة.

- كيف سيقتلوك؟!

- انظري حولك، ستجدين شاهدا على اغتيال جديد لفلسطيني جديد.

- لا ترعبني.

- إنها مجرد هواجس.

ليلتها أخذ ليلى بأحضانه ومشط شعرها وشرح لها عن أرض جدها سليمان الصالح وجدها أستاذ التاريخ الوسيم، وجدتها ابنة صاحب المطبعة الأولى في حيفا، وكيف يعلم منزل جدها في عين حوض الرسم للمهاجرين الجدد بعبقرية الطبيعة والتراب والبحر والوادي، غنى لها أغان كثيرة كثيرة باللغة العربية.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ليلى تريد العودة!

الهواء عاصف في الخارج، وجذوع الشجرة الكبيرة أمام شرفة منزلنا تتحرك بشكل هستيري، المطر مثل أصابع خشنة تمشط الزجاج بعنف، تلمع الأضواء كأنها أرواح متقدة شاردة، تجلس ليلى ذابلة العينين على المقعد المترنح، شاحبة، ترسم وترسم، منهمكة، رغم الدفء كانت أصابعها ترتجف وتبدو شفتاها زرقاوين.

تسألني: ماذا تفعل جدتي في بيت كبير على تلة مهجورة في مدينة نابلس؟ ولماذا لا تأتي عندنا؟ أنظر إليها وأتاملها كأنني أحاول أن أتحسس الوحيد واشتمه، عيناها السوداوان الحادتان وشعرها المنسدل اللامع الأسود الفاحم -بتدخل من المترجم- وبشرتها البيضاء الصافية كانت في منتصف المسافة بيني وبينه؛ أنفي الرقيق وعيناه الحادتان لون شعره وسيولة شعري، تسألني عن جدتها بحرقة وشفتاها ترتجفان: كيف تكون وحيدة وفي حديقة المنزل قبرا جديّ: سليمان وصالح؟!

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

تسرح وترسم، تعود بعد أن تنظر إلى صورة والدها، ماما، ماذا يفعل أبي الآن هل هو دافئ وشبعان؟ هل يضربه الإسرائيليون ويعذبونه؟ أخبريهم أن والدي الذي سالت دموعه على قط مكسور وسهر حوله ودفاه، لا يمكن أن يقتل، لا يمكن لا يمكن. وهم كذلك سرقوا منزل جدي في عين حوض. تحمل لوحتها وتذهب باكية إلى الغرفة، أجلس مكانها وأنظر نحو ضوء غرفتها الذي ظل متقدا.

ليلى، لم تكن ابنة عادية انتظرتها بشكل روتيني، ليلى لم تكن لتكون لولا الوحيد؛ فأنا لم أكن الأرض التي تنتظر البذور، ولم تكن أنوثتي تشتاق لذلك التكور والانتفاخ في البطن وانتظار صرخة الولادة. لم يكن ذلك يعنيني، كنت أعتقد أنني أرض للأزهار لا للزراعة وأني جسد بلا حراثة، وكثيرا ما كنت أشعر بالغثيان من انتفاخ البطن والوجه وتكور الحمل، لم أكن أرى في الولادة سوى الدم والمشيمة اللزجة وصراخ بلا جدوى، كان خصري بالنسبة لي حالة من الثبات، لم أتوقع يوما أن ينتفخ ويسيل دم الولادة بين فخذي، كل ذلك كان ذكرى بائسة ومستقبل بلا جدوى، المفارقة الوحيدة التي كانت تستهويني في الجسد هو تلك المساحة المقوسة بين الخصر والردف، فالمرأة جمال ليس إلا.

عندما احتضنني الوحيد للمرة الأولى قبل الزواج بأيام معدودة ومرر يده على المنحنى المقوس بين خصري وردفي

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وعصرني نحو صدره وغمرت رائحته أنفي وخدي، شعرت ببذور خفية تتفرع تحت مسامات جلدي، وتصوّرت أن الوحيد لا يمكن أن يكون قطعة مني إلى الأبد، وأن أكون المرأة الوحيدة المتجسدة في حياته إلا بطفل ألمسه من خلاله ويلمسني هو أيضا، كيف لهذا الشفاف الرقيق غير النهم وغير الشهواني، وأن كان يختزل المتعة كلها بلمسة أو نظرة، كيف لهذه الرقة أن تدفعني لتقبل أكثر الحالات استغراقا في الحاجة والغريزة وهي الحمل والولادة وانتفاخ الثديين بالحليب؟ كيف انقلبت اللوحة وحافظت على جماليتها؟ وكيف انتقلت لفن الأمكنة وإلى ليلى التي ترسم المنازل دائما والوجوه؟ ووجوه أجدادها، ومنازلها الثلاثة؛ هنا وفي نابلس وفي عين حوض، ومن جديد بدأت ترسم وجه والدها، وهو أمر بات يرعبني.

لا أكتب هذا يا بشارة -كما تعلم- المقصود المترجم- لأثير شفقة أحد؛ فأنا أحفظ الوحيد خلف قضبان سجنه؛ لكني أقول للإسرائيليين وللعالم: إن قواكم المتوحشة وسلوككم الرهيب وتناقضكم هو من أيقظ الكبرياء الأخير في روح الوحيد، الذي تريدون منه أن يكون كريما حد التكرم بذكرياته وبيته وشواهد قبور أجداده، لقد دفع ثمن توحش الجميع؛ توحش الفنان الذي يتقوقع في تحجر الله ويعيد إنتاج دين الأنانية؛ فكيف لفنان مهاجر أن يقيم مجده على تعب وعرق فنان مقيم وإن كان لا يدعى رساما؟ وكيف للعالم أن ينتصر

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لذكريات منقطعة منذ ثلاثة آلاف عام، ويتجاوز ذكريات جسدها الآن مازال ساخنا؟ وكيف يطلبون من الوحيد أن يدفن قبور أجداده لتبحثوا أنتم عن قبور أجدادكم؟ وما هو الأهم أيها العالم، اللوحة الأزلية أم الفنان الطارئ؟

إن ليلى الآن تعيد مصير والدها الوحيد، بعد أربعين عاما وتعيش بلا أب ولا جد ولا جدة، تعيش بمنزل ترسمه فقط، ومن أحق منها بمنزلها في عين حوض؟ هي الأحق أم الآلاف المهاجرين الذين لا يعرفون الفرق بين شجر الخروب وشجر البلوط؟ ليلى ابنة الأب الأكيد، فلسطيني بين أيديكم، جدها جاثم في قبره، من هو الأحق بأن يرسم منازل عين حوض وتلالها وبحرها؟ اسألوا الأرض في عين حوض لمن ستبتسم، لليلى أم للمهاجرين الذين أصبحوا ملاكا بوراثة الرب الصامت منذ ثلاثة آلاف عام.

الصديق الحميم بشارة -المقصود المترجم- ليلى تسمع ما أحضرته لها في عيد ميلادها العاشر، تسمع فيروز عندما تغني عن القدس وعن بيسان، وتدندن بلغة عربية لذيذة لتكتمل، دعني أخبر هؤلاء الذين لم يكن الوحيد يوما يريد قتلهم؛ فقلبه الرسولي يغمر الأرض محبة؛ لكنه مع ذلك لن يسلم لهم منزله، ليلى ستبقى ترسمه وهي لا تنام حتى تصحو مفزوعة، تسال عنه وتنام وعينها مفتوحة.

سأسرد لكم قصة الحلم الرهيب الذي ظل يلاحق الوحيد في سنواته الأخيرة: كان يصحو مرتعشا غارقا بالعرق،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يده متشنجة، يشرح لي: أحاول أن أرفع يدي لأقتلع شاهد منزلي فلا أستطيع، أحاول وأحاول، قوة رهيبة تمسك يدي ويختنق صوتي، فأصرخ وأشد يدي وأشد وأصرخ؛ أصحو قبل أن ألفظ نفسي الأخير.

إن الوحيد ليس قاتلا؛ لكنه ليس جبانا، كان يقول لي: إذا أرادوا أن يعيشوا فليعيشوا جيرانا لا أسيادا، شركاء لا أوصياء فوقيين، كما عاشوا آلاف السنين قبل أن تلقحهم لعنة رواية النيابة الربانية هذه.

هل تذكر يا بشارة تلك اللحظات الرهيبة، عندما تناولنا طعام الغداء على ساحل بيروت مقابل الروشة في الصيف الأخير، كان هناك كل شي يشبه حيفا كما كنتما تقولان أنت والوحيد: الجبل المقوس نحو البحر كخصر الجنيات، وارتفاع الصخر على شكل هاوية مغرية للعصافير والنسائم والندى البحري والرذاذ. قال الوحيد وقتها: يمكن للمكان أن يترجم بمكان، من الممكن ترجمة حيفا ببيروت. تذكر سرحانه الرهيب، عندما صدح المغني:

على الله تعود بهجتنا والأفراح.

وتغمر دارنا البهجة والأفراح. «تمت الترجمة لمطابقة الأصل العربي».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

سابقت دفقة الوحيد العنيفة، وقرأت تلاطم الذكريات في عينيه وهو بنظرته بفتش أمواج البحر. قال: ما زالت أجساد الفدائيين التي اخترقت البحر من هنا لتصل بحر فلسطين تشبع المكان، وما زالت تنهداتهم المتحسرة قبل الموت تغمرني مازالت رائحة المجاري ونظرات الأطفال نصف العراة في أزقة برج البراجنة وأسماء القرى في حيفا وعكا والجليل وغيرها تزين جدران المخيم، سيبقى البحر درجات للصعود إليها. وقبل أن تسقط دمعته مازحته قائلا مع صوت المغني الهادر، لديكما بيروت كلما شعرتما بالفقدان سافرا إليها، تذكر ذلك يا بشارة؛ يمكن أن لا تترجم هذا الجزء إذا كانت عليه مسؤولية أمنية.

أخيرا، أيها الصديق العزيز، سأسرد لك كيف سافر الوحيد في ليلته الأخيرة؛ أخبرني أنه حجز تذكرة لأسبوع ذهابا وإيابا، وأن رحلته ستنطلق الساعة الرابعة مساء، وأنه سيذهب إلى المطار منتصف النهار وسنصحبه أنا وليلى، تناول العشاء «الأخير، بتدخل من المترجم» داعب ليلى بشكل فوق اعتيادي نام إلى جانبي حتى منصف الليل، ضمني ضمة طويلة ولم يبعد يده عن خصري طوال تلك اللحظات، نهض فجأة وكانت الساعة نحو الثانية ليلا، قال انه ذاهب لفحص بعض الأوراق في السيارة، لم يخطر ببالي أي احتمال آخر، خاصة انه غادر بملابس النوم، تأخر كثيرا، تبعته، لقد غادر مسرعا وترك ورقة صغيرة على باب الكراج.

حبيتي وسيدتي

«انتظروني، فأنا لا أطيق الوداع ولا احتمله فهو ينثرني مثل حبات الرمل. لا أستطيع تحمل نظرة ليلى فهي وراثة لاحتمال الموت .

سأغادر الآن، وليكن صباحكما وادعا، قبلي ليلى وتأسفي لها

لن أطيل، سأطمئن على جدي أنا وبشارة، لا تتركي ليلى تشعر بالوحدة والفراغ

قبلاتي».

مكتبة الرمحي أحمد

كانت هذه كلماته لي ولابنته، كان ذاهبا مدفوعا بحب كبير هو حب الأم والجد والمنزل. ولتسأل من هم حولك أنفسهم؛ حول القوة والشر الكامن فيهم حتى يستجلبوا ردا من إنسان فلسطيني بهذا القلب؛ ليراقبوا أنفسهم، وليعلموا بأنهم لا يملكون القوة الأخلاقية لمحاكمته، ولا حتى لاستجوابه «بيتي بيت الصلاة يدعى وأنتم تجعلونه مغارة لصوص» مقولة للسيد المسيح -المترجم -

مرفق رسومات رسمتها ليلى لبيتها في نابلس وعين حوض وهنا، وكذلك وجوه جدتها ووالدها وجدها سليمان.

سلام للوحيد ولك يا بشارة.

ريبكا جونسون

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أرث أبي أنا، وجدتي ترث ابنها

كيف لي أنا جوليانا بشارة -التي كانت قبل أسابيع قليلة تحتفل باستقلال (إسرائيل)، وتشارك زميلاتها اليهوديات أعياد ميلادهن، وتستعد للاحتفال بعيد ميلادها التاسع عشر معهن كذلك- أن تكتب ما طلبه منها والدها الذي تحول من طبيب إلى سجين، ومتهم بالتواطؤ وخيانة الدولة. حتى الآن لم أستوعب ما حدث، وكيف انهار بيتنا؟ لكني أحب أبي وأصدقه في كل ما يقول ويفعل. علمني المحبة والصدق، وزرع في آلام الرب وفدائه؛ فهو لم يكره أعداءه، لكنه أراد أن يطبق وصايا الرب بالعدالة.

قال لي: «إن ليلى ابنة الوحيد أولى بمحبتي وإنسانيتي». لا أنكر قبل تلك الأحداث مع والدي بعد عودته من رحلة التعليم وتعرفه إلى الوحيد أنني لم أكن أعلم شيئا عن التاريخ إلا أنهم كانوا يسموننا (عرب إسرائيل). نحن عرب.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أوصاني أبي في تلك الليلة العصيبة أن أحضر محكمته، وأن أكتب ما يدور فيها عن شهادته وتهمته حرفا حرفا، وألّا أفارق الجدة أم الوحيد، وأن أبيت إلى جانبها في نابلس. كانت ملامحه مرهقة بعد أن سهر ليالي متواصلة لترجمة ما أرسلته «ريبكا» زوجة الوحيد.

اقتحم رجال الشرطة منزلنا دون سابق إنذار، وصادروا كمبيوتر والدي وهاتفه، وحطموا الصور المعلقة بعد حفلة عيد ميلاد أمي.

انتهت السكينة في تلك ليلة، وبدأت بعدها مرحلة صعبة بين مقاطعة قسم كبير من الأهل والأقارب لوالدي، ورفضهم لموقفه. حاول تهدئتي عندما اعتقلته الشرطة الإسرائيلية بهذا الشكل العنيف، فقدا داست أرجلهم ما تبقى من زينة، ومزقوا ما تبقى من عبارات التهنئة الموضوعة على الطاولة والمكتوبة باللغة العبرية أو العربية على حد سواء.

غادرت قاعة المحكمة المركزية في حيفا أسند جدتي أم الوحيد. كانت المرة الأولى التي أرى فيها والدي الدكتور بشارة مكبلا يقف إلى جانب الوحيد بعد اتهامه بالتواطؤ معه، وزيارة بلد معاد، وإبداء التأييد «للمخربين»، وتعليق صورهم في المنزل. كانت الصحف قد نشرت شهادة والدي حول علاقته بالوحيد، والترجمة الكاملة التي استطاع إتمامها لشهادة ريبكا زوجة الوحيد قبل اعتقاله.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كان موقع المحكمة المركزية في حيفا ومشهدها غريبا؛ فهي لا تبتعد أكثر من بضع مئات الأمتار عن مقبرة وجامع الاستقلال، وكانت المرة الأولى التي انتبه إلى اسم الحي الذي تقع فيه، وهو حي «فيليام» الذي لم أعرف معناه قبل أن أبحث عنها عبر «جوجل» على استعجال، وإذا بها تعني الذراع العسكرية البحرية لتنظيم (البلماخ) الصهيوني الذي أشرف على هجرة اليهود وتهجير العرب، العرب الفلسطينيين، يعني الوحيد وأمه ومن ثم ليلى. لقد عشت طويلا قبل أن أعرف ذلك.

صعدت سيارة والدي مع أم الوحيد التي تحسست الكراسي، وشمت السيارة بعمق وهي تقول: «في هاي السيارة روح عمي سليمان، ورائحة ابني الوحيد، وكأني سامع صوت والدك». سألتني عن النقطة التي تكون فيها عين حوض على جبل الكرمل، أشرت إليها بسرعة قبل أن تهبط بنا السيارة مسافة طابقين أو ثلاثة من مبنى المحكمة المركزية العملاق الذي تبدو واجهته الأمامية على شكل شراع ومداخله زوايا حادة. بدأ قلبي يرتجف عندما رأيت والدي وعمي الوحيد في تلك القاعة البيضاوية وخلفهما شرطيان حادا النظر. جلست أنا مع أم الوحيد في صف الكراسي الأخير مقابل طاولة المحامين.

كانت قدماي ترتجفان، ابتسم لي والدي، شعرت بدموعي تقفز. حاول الوحيد القفز عن السور الإسمنتي القصير نحو أمه، فأمسكه أحد الشرطيين صارخا «شيف». قال لي أبي: لا تنسي، أكتبي كل حرف.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وجه أحد القضاة سؤالا للوحيد حول دوافعه لقتل شرطي بريء. أجاب الوحيد بأنه لم يقتله، وأن الذي قتله من جاء به إلى هنا، ومن وضع شاهد منزل جده تحت البول والقاذورات، من قتله هو الرب الذي يؤمن به. صرخ القاضي بوجهه: كان يجب أن يتم إعدامك، وأنت تستحق ذلك، لكن قوانين الدولة أعطك الحياة. رد الوحيد: لماذا هذه الإنسانية المفرطة!

بدأت أرتجف أكثر حتى بدأت أسناني تصطك، فأنا لم أستوعب بعد وجودي هنا. تابع الوحيد: «قلت لك مليون مرة: لن تستطيع محاكمتي، تصلبني لا تحاكمني، سأقوم قيامتي. عليك أن تتعظ من القضاة قبلك»، سأخبرك أين كنت الليلة الفائتة؟ وما هذا الخدش فوق حاجبك؟ فتح القاضي عينيه وضم شفتيه، وبدأ شعره الأشقر الأشيب ينسدل على جبهته، بينما كانت الكاتبة السمراء تسقط رأسها مغرقة في الورق. لم أكن أعلم هل أنا بحلم أم بعلم؟ تأملت أم الوحيد وهي تنظر إلى رجلي ولدها المكبلتين بالحديد، وتدعو الله لسليمان الصالح وللدكتور بشارة.

تابع الوحيد صراخه بوجه القاضي، وأخبره بأن تاريخه الأعمق يعود إلى مدينة (ماينز) الألمانية، وأن جدته وجده قتلا إبان الذبح الذي تعرض له اليهود في طريق الذي سار فيه الأوربيون لتحرير قداسة المسيح من رجس أعدائه. لو كنت هناك لدفعت حياتي دفاعا عن حياة جديك .

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

جن جنون القاضي وبدأ بالصراخ، وطلب من الشرطيين إخراس الوحيد. استطاع الوحيد لفظ كلمات سمعت منها ما يشبه بأن والد القاضي مات منتحرا.

بدأت أشعر بالخوف الشديد، وأنا التي كنت أظن قبل المحاكمة أن اليهود سقطوا مع نور الشمس من عند الله، وفي يد كل واحد منهم خريطة أرضه في فلسطين.

أسكت رجال الشرطة الوحيد بالقوة، وتوجه القاضي بالسؤال لوالدي حول التواطؤ مع المخرب الفلسطيني وخيانة الدولة. رد أبي بأنه دافع عن نفسه وعما رآه، وأن من حق الوحيد وابنته ليلى العودة لبيته في عين حوض، وأن الوحيد لم يدع إلى القتل .

صرخ القاضي بأن عين حوض بيت اليهود القديم الذي تمت سرقته منذ ثلاثة آلاف عام. قال والدي بما أنه في محكمة فإن من حقه الاستماع إلى شهادة الرب !

في تلك الأثناء كانت أصوات المتظاهرين اليهود تقترب من المحكمة التي أُجلت إلى إشعار آخر .

طريق طويلة مشيتها بسيارة والدي مع أم الوحيد لنصل نابلس مع الليل. بالكاد استطعت عبور الأزقة التي لم أزرها من قبل. قالت لي أم الوحيد:» إن هذا جبل (جرزيم)، وهذه جامعة النجاح». أصعد الجبل حتى أطل على بيت ضخم مظلم عرفته من أوصاف والدي له .

على شرفة منزل الوحيد في نابلس، وقد بدأ نسيم جرزيم القادم من البحر من شواطئ (نتانيا) التي كان اسمها أم خالد قبل قيام (إسرائيل). قبلتني أم الوحيد واحتضنتني حتى رأيت دمعها يلمع في عينها. قالت: «والله ما أنا عارفه لولا والدك شو ممكن صار، معلش يا بنتي إذا كنا سبب في عذابكم». ولأنني وعدت والدي كتبت كل حرف. بكيت أنا على حضنها، وقلت لها «هم واحد يا ستي». كم كانت جميلة جدتي أم الوحيد بعينيها الواسعتين، وشعرها الأملس الذي لم يقلل الشيب من لمعانه. تذكرت كلام والدي أن والدها صاحب أول مطبعة في حيفا. كم هي حنونة، ولمستها ناعمة. لمع شاهدا القبرين تحت الضوء؟، قالت: «القبر الذي ترابه أحمر جديد هو قبر عمي سليمان الصالح، والقبر الذي شواهده قديمة ويغطيه الربيع هو قبر والد الوحيد»

قالت: «يا حسرتي على ابني الوحيد وبشارة، لولا ابني بشارة لبت وحيدة الليلة. بعد شوية بتشوفي الناس الخارجين من صلاة العشاء، ما أكثرهم! هون بصلوا وبقتلوا بعض هناك، حسرتي عليهم، وحسرتي على فلسطين ما عاد فيها إكبار ومؤمنين».

قلت لها: «أتعرفين؟ ما لن أنساه من المحكمة يا جدتي أمران: الأول كيف عرف الوحيد بهذه المعلومات؟ أليست معجزة؟! أما الأمر الآخر فهو جواب والدي للقاضي عندما هدده بسحب (الجنسية الإسرائيلية) منه عندما قال: ماذا سأخسر؟ سأعود فلسطينيا نقيا.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

المؤلف

وليد الشرفا

مواليد نابلس فلسطين .
أستاذ الإعلام والدراسات الثقافية في جامعة بير زيت، فلسطين منذ العام 2006.

- حصل على الماجستير عن أطروحته حول بواكير السردية العربية عام 2000
- حصل على الدكتوراه عام 2006 وكانت أطروحته حول الخطاب عند ادوارد سعيد .
- تتركز اهتماماته حول السرد وثقافة الصورة والاستشراق .
- اصدر نصه الروائي الأول في المرحلة الثانوية بعنوان محكمة الشعب عام 1991

صدر له :

- القادم من القيامة، رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2013 .
- الجزيرة والإخوان، من سلطة الخطاب إلى خطاب السلطة، المؤسسة العربي للدراسات والنشر، بيروت، 2013 .

إدوارد سعيد ونقد تناسخ الاستشراق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، 2016

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الفهرس

القارئ شريك في المعجزة، لكنه ليس شريكا في الإثم 7
باسم الرب والروح 13
ما لم يتم تدوينه 15
من هوس الروايات إلى هوس الحالات؛ الطبيب يعيد صياغة المؤرخ 71
بداية التفاعل 75
مقدمة لتقرير طبي 77
بداية ظهور الأعراض 81
العودة المعاكسة 85
تشخيص: حمى بأثر رجعي 91
الجهاز العصبي يملأ الفراغ فيصبح عضوياً 93
لكل فعل ردة فعل معاكسة له في الاتجاه 103
العلاج 109
عدوى المؤرخ تصل ذروتها 115
الطبيب يستجيب لأمر الشرطي لكنه لا يجبر حواسه . عيد الميلاد وصور الأموات . 119
الطبيب يجري عملية جراحية لغوية 127
الطبيب أمام عملية نقل أعضاء لغوية 129
اللوحة الأولى: مسرح داخل المسرح 131
إنه لا يعلمني، إنه يهديني 135
اللوحة الثانية: الكاتبة تعيش أوجاع شخصياتها 139
ليل تريد العودة 145
أرث أبي أنا، وجدتي ترث ابنها 153

مكتبة الرمحي أحمد telegram @ktabpdf

HEIR OF THE HEADSTONES

رواية

مكتبة 163

وارث الشواهد

أحسست بأنّ لحية سليمان الصالح تتمرّغ، وهو يستصرخني لانتشاله، يده تلوّح لي. سليمان الصالح يعيش في حمّام الفنّانين المهاجرين؟! أبدأ بالعويل، سأنزع شبّاك الحمّام، وأحطم الحجارة المحيطة بشاهد منزل جدّي، أضرب الحجارة بعنف، سيتطاير شرر من حديد الشبّاك. فجأةً ينفتح الباب خلفي، يحملني شرطيّان يرتديان اللون الأزرق. سأصرخ في وجهيهما: «أريد الحجر فقط». سيلكمني أحدهما على وجهي لكمةً شديدة، سأثور أكثر بقوّةٍ أضعاف قوّتي. سأعود إلى الشاهد، ينتزع أحدهم مسدّسه ويصوّبه نحوي. سأحمل الشبّاك وأصرخ: «أريد الشاهد، ولا أريد قتل أحد».

من «عودة الوحيد إلى عين حوض، حيفا»

الأهلية
الأردنّ، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 ◆ منشورات 2017
الغلاف: ستيف سيو ® ☎ 95297109 7 00962